

الباب الثالث

دراسة تفصيلية

لبعض الأخلاق الإسلامية

في ضوء القرآن والسنة

obeikandi.com

الاعتدال فى الإنفاق

إن الإسلام دينُ الفطرة، وحينما ننظر فى الدين بجوانبه المختلفة ندرك هذه الحقيقة، كأساس للفطرة البشرية التى تقوم على الاعتدال فى مقاصد الحياة دون إفراط أو تفريط، وأخص ما وصف الله به هذه الأمة أنها الأمة الوسط، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسط أدق معانيه: القصد والاعتدال فى مطالب الحياة كلها، الروحية والمادية، الفكرية والتجريبية، الدينية والدنيوية، الفردية والجماعية، وقد أباح الإسلام أن يستمتع الإنسان بطيبات الحياة، وبلاستمتاع المشروع من الطعام والمشرب، والزينة، والجمال، وسائر وجوه النفقة، فللروح حقها، وللبدن حقها، والمسلم يأخذ حقها من هذا وذاك، فى قصد وتناسق واعتدال ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والاعتدال هو الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط وهما الخلقان الذميان، فالاعتدال فى العبادات أن تخلو من الغلو والتنطع والإهمال والتفريط، وفى النفقات الحسنة بين السيئتين، فلا إسراف ولا تقتير. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فهذه الآية تبين لنا أن عباد الرحمن لا يتصفون بالإسراف أو التقتير، وإنما يلزمون جانب الوسط وهو الاعتدال.

فالاعتدال فى الإنفاق سبب لتحقيق الآمال وقضاء المآرب والمطالب كما قال ﷺ: «لن ينجى أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتفمذننى الله برحمته فسدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد والقصد تبلغوا» (رواه البخارى)، أى عليكم بالتوسط فى الأمور كلها، وسلوك سبل الاقتصاد، لتصلوا إلى غاياتكم ومرادكم، وكل ما ترغبونه وتحتاجونه، وأمرنا النبى ﷺ بالاقتصاد فى الإنفاق، لأن المال نعمة من عند الله، فهو قوام

للعباد ، به تقوم أحوالهم الخاصة والعامة الدينية والدنيوية ، فالمال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقى الأمم ونهوض الشعوب ، وبه تكون الأمة عزيزة قوية ، جليلة مهيبة محترمة فى نظر الشعوب ، وبزواله تصبح الأمة ذليلة ضعيفة ، ليس لها هبة أو حرمة أو كرامة ، بل فريسة للأقرباء ، بهذا وأمثاله عنى الشارع الحكيم بأمر الاقتصاد وحمل الناس عليه ونهى عن الإسراف والتقتير وسفه أحلام المسرفين المبذرين .

وبهذا يتضح لنا أن للاقتصاد فوائد جليلة ومنافع عظيمة أهمها اتباع أمر الله ورسوله وقضاء حوائجنا ومطالبنا ، والمحافظة على أموالنا التى هى عماد الحياة وقوامها ، وبهذا نعيش فى أمن ورخاء فى الدنيا والآخرة ، لأن الإنسان يحاسب على كل أعماله مرة واحدة ويحاسب على ماله مرتين : من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟

* * *

القناعة

هى الرضا بما قُسم للمرء من متاع الحياة الدنيا، وعدمُ النظر إلى الغير وما معه من مال، فليس للحياة بدون قناعة لئلا، ولا من غير رضا قيمة، وما ضاقت الدنيا إلا فى وجه من اتخذ الجشع طبعاً، والحرص ديناً، ولا عاش سعيداً إلا من كان الرضا حليفه والزهد قرينه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» (رواه البخارى)، وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» (رواه الترمذى).

وقال بعض الحكماء أيضاً: يا بن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائن الله ملاءنة، وخزائنه لا تنفذ أبداً، ولا تأنس بغير الله فإن أنست بغيره تعالى فاتك الخير كله، وارض بما قسم الله لك، ترح قلبك وبدنك، ولا تطالبه برزق غدٍ كما لا يطالبك بعمل غدٍ، فإنه لا ينسى من عصاه، فكيف ينسى من أطاعه، وهو على كل شىء قدير وكل شىء محيط.

وقال الشاعر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص ولا تفكر إلا فى الزيادات

وروى أنه وفد على رسول الله ﷺ وفدٌ بصحبته غلام، فعندما انصرفوا من عنده أجاز كلاً منهم بجائزة، كعاداته مع الوفود، وأراد الرسول أن يستوثق من مكافأتهم جميعاً فقال: هل بقى معكم أحد...؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سناً، فاستدعاه رسول الله ﷺ ليأخذ جائزته فقال: يا رسول الله: إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى وإن كانوا راغبين فى الإسلام، والله ما أخرجنى إليك إلا أن

تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى، وأن يجعل غنائى فى قلبى: فدعا له النبى بذلك ثم أجازته وقفل الجميع راجعين إلى اليمن، ثم وافاه جماعة منهم بمنى سنة عشر، فسألهم الرسول ﷺ عن الغلام فقالوا: والله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا من حوله ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

وصدق الإمام على كرم الله وجهه حينما عرف التقوى فقال: هى الخوف من الجليل، والقناعة بالقليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.
وقال أيضاً عن القناعة:

أفادتنى القناعة كل عز وأئى غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة
ندعو المولى تبارك وتعالى أن يرزقنا القناعة ويبارك لنا فيما رزقنا وأن يبعد
بيننا وبين الحرام كما باعد بين المشرق والمغرب.

* * *

قمع النفس عن الهوى

إن للنفس نزعات شيطانية، ولذات شهوانية، فإذا هي تركت وشأنها فإنها تلهث وراء لذاتها، وتسيرُ في سبيل شهواتها، فنزعتُ إلى الشر كل منزع، فلا شك أنها تؤدي بصاحبها إلى الهلاك، أما من تغلب على نفسه وقادها بعقل راجح، وفكر ثابت، ومنعها من أطماعها الدنيئة، وكفها عن شهواتها، فإنه يكون بعيداً عن مواطن الشقاء والهلاك، غير مرتكب إثمًا ولا متحمل وزرًا، وسيجزيه الله الجزاء الأوفر مع المتقين.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» (رواه الترمذي).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلالة تنزع إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مرى، وإن الباطل خفيف وبي، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا.

وقال أبو الفتح البستي:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته	لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها	فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفي عهد عمر بن الخطاب توالى الفتوح والانتصارات واتسعت الدولة، وتدفقت الموارد، وكان عمر رضي الله عنه يأبى إلا الشدة، فلما جاد الله بالسعة، دخل المسلمون على أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضى الله عنها، فقالوا: يأبى عمر إلا شدة على نفسه

وحصراً وقد بسط الله في الرزق، فليبسط من هذا الغنى فيما شاء منه، وهو في حل من جماعة المسلمين.

فكان حفصة قاربتهم في هواهم، فلما انصرفوا من عندها دخل عليها والدها سيدنا عمر فأخبرته بالذي قال القوم.

فقال لها عمر: يا حفصة بنت عمر، نصحت قومك وغششت أباك، إنما حق أهلي في نفسي ومالي، فأما في ديني وأمانتي فلا، سأخاصمك، أما تذكرين ما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلقي من شدة العيش؟ وما زال يذكرها حتى أبكاها. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجناتية: ٢٣].

وقال ابن السماك: كن لهواك مسوفاً، ولعقلك مسعفاً، وانظر ما تسوء عاقبته، فوطئ نفسك على مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها، ونهى النفس عما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء.

* * *

الإخلاص

إن البواعث التي تسوق المرء إلى العمل، وتدفعه إلى إجادته وتغريه بتحمل التعب فيه، أو بذل الكثير من أجله كثيرة متباينة، منها القريب الذي يكاد يرى مع العمل، ومنها الغامض الذي يختفى في أعماق النفس لذلك فإن أى عمل يقوم به المسلم يجب أن يكون مراده فيه هو الله رب العالمين لذلك فإن الله تعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ [الليل: ١٨ - ٢١].

وفى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينجسها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (البخارى) وقد جعل الإسلام اللذات التي تشهاها النفس إذا صاحبته النية الصالحة والهدف النبيل تحولت إلى قربات، فما يطعمه الإنسان فى بدنه، أو يطعمه أولاده وزوجته له مثوبة بنية الخير التي تقاربه، عن سعد ابن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال: « إنك لن تتفق نفقة تبتغى بها وجهه الله، إلا أجزت عليها حتى ما تجعله فى فم امرأتك » (البخارى).

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته فإن حركاته وسكناته ونوماته ويقظاته، تحتسب خطوات إلى مرضاة الله، وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو إليه لقله ماله أو ضعف صحته، أما العبادات التي تصدر عن رياء وسمعة فالله تعالى لا يقبلها من عباده.

قال تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الذين هم يراءون]

﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون : ٧-٤].

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويقول رسول الله ﷺ:

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راضٍ » (ابن ماجه).

وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقد أعلن الإسلام كراهيته العنيفة للرياء فى الأعمال الصالحة واعتبره شرًا بالله رب العالمين والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

* * *

العدل

العدل هو التزام طريق الحق فى كل أمر من أمور الدنيا، وعدم الحيدة عنه قيد شعرة، والبعد عن الظلم أو الميل عن جادة الإنصاف بقصد قضاء بغية أو منفعة تعود إليه.

والحقيقة التى لا مراء فيها أنه لا منفعة وراء الظلم، ولا فائدة ترجى منه، بل هو طريق وعر المسلك، قلما ينجو منه صاحبه، وإن ما يلقاه من مقاطعة الناس له، وغضب المولى عليه، لأكبر دليل على كبر ذنب الظالمين وسوء عاقبة الباغين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال بعض الحكماء: يوم العدل على الظالم، أشد من يوم الجور على المظلوم.
وقال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم آخره يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم
وكان من خلق المهدي الحياء والعفو والجود والحلم وكان يتأثر بالقرآن كما اتصف بالعدل، وجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة، وقد بلغ من حبه للعدل وميله إلى رد المظالم لأصحابها، أنه كان يقول إذا جلس: أدخلوا على القضاة فلو لم يكن رد المظالم إلا للحياء منهم لكفى.

ومما يدل على عدل المهدي ما قاله مسعود بن مساور، وقد ظلمه وكيل المهدي وغصبه ضيعته، فأتى صاحب المظالم وأعطاه رقعة أوصلها إلى المهدي وعنده القاضى، فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته، فأخبره فقال للقاضى: إن هذا ظلمنى فى ضيعتى، مشيراً إلى المهدي، فقال القاضى: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتى فى يدي، فقال ابن مساور: أصلح الله القاضى، سله: صارت إليه

الضيعة قبل الخلافة أم بعدها؟ فقال المهدي بعد الخلافة، فقضى القاضى للمدعى،
فخضع المهدي لحكم القضاء.

وصدق من قال:

العدل روح به تحيا البلاد كما دمارها أبداً بالجور ينحتم
الجور شين به التعمير ممتع والعدل زين به التمهيد ينتظم

وقال أحد الحكماء: الظالم مهلك ثم هالك، كالنار إذا وقعت فى يابس الشجر،
لا تبقى معها مع تمكنها شيئاً، حتى إذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت.

إن العدل أمانة وعهد، ولا بد أن يكون المسلم من خلال مسئوليته عن نفسه
وأهله ملتزماً بالعهد والعدل، ومراعياً لهدى الله، أما إذا ظلم الإنسان وبغى فى
الأرض ونسى عهد الله فهذا لا يستحق العهد إطلاقاً ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولو نظرنا إلى عهد النبى ﷺ وصحابته الكرام لوجدناهم هم أفضل مثال للعدل
فى الأرض ولذلك قال عمر: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فى إن لم
أسمعها»، أى كلمة العدل، ولذلك وصفه الرسول بالفاروق أى العادل الذى فرق بين
الحق والباطل وبين العدل والجور.

* * *

الجود والكرم

إن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق وينهى عن الشح والإمساك، ولذلك حُبَّ إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفُّهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم لا ينفكون عنه في صباح أو مساء، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

من الواجب على المسلم أن يقتصد في مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله فإن عليه أن يُشرك غيره فيما آتاه الله من فضله، وأن يجعل في ثروته متسعاً يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين. قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: [يا بن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف أبداً بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى] (رواه مسلم).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حين قرن النهي عن التبذير بأمر الإنفاق على القربة والمساكين، فإن المبدّر متلافٌ سفيه يُضَيِّع في شهواته الخاصة ماله، فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض؟

قال الله تعالى: ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَكِينَ وَأَبْنَ السَّيْلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) [الإسراء: ٢٦ - ٢٧].

وقصر السياق في الإيضاء بالمحتاجين وصيانة وجوههم، فأمر المسلم أن يقول لهم الخير وأن يرد بميسور من القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون.

قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَرَضَيْتُمْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مستمرة وحرية على الشح والبخل موصولة مستمرة وفي الحديث: «السخي قريب من الله قريب من الناس، قريب من

الجنة، بعيد عن النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهل سخيُّ أحب إلى الله من عابد بخيل» (رواه الترمذى) إنه لم يوجد فى الدنيا - ولن يوجد - نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة، بل لا بد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف، وأن يرفق المكثّر بالقل، وفى الإسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير، وإسداء العون وصنائع المعروف، ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم، بل يترد أمانها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم فيقيهم زلازل الأحقاد، وعواقب الأثرة العمياء، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لَتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهَنْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَتُخَلِّفُونَ فِي الْأُمُورِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [محمد: ٣٨].

ولقد حث الرسول ﷺ الناس على البذل والعطاء للبائسين المحرومين، فعن جرير قال: كنا فى صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاء قوم عراة مجتابو التمار (مشقوقو الملابس) عامتهم من مضر فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من فاقة فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ثم قال: ليتصدق الرجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره حتى قال: ولو بشق تمره» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة فكادت كفه أن تعجز عنها بل لقد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء» (رواه مسلم).

* * *

الحفاظ على البيئة من التلوث

إن الدين الإسلامى دين متكامل يحرص على سلامة المسلم ويحفظ له صحته وماله وعرضه، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، والبيئة هى الرعاء الذى يعيش فيه الإنسان ليؤدى الأمانة التى حملها فى هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وحرص الإسلام على البيئة هو حرص على الإنسان جسداً وروحاً ووقاية وعلاجاً. فلقد حث الإسلام على الحفاظ على البيئة من التلوث حتى لا تنتشر الأمراض وتنفشى الأوبئة فى المجتمع قال ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل» (رواه أبو داود وابن ماجه).

وأمر الإسلام بطهارة الثوب قال تعالى: ﴿وَتَبَايَكَ فَطَهَّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وكان هذا من أول ما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ فالثوب الطيب دليل طيب لابس. وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ رأى رجلاً رأسه شعث فقال: «أما وجد هذا ما يسكن به شعره؟»، ورأى آخر عليه ثياب وسخة فقال: «أما كان هذا يجد ما يفسل به ثوبه؟» (رواه أبو داود).

وأمر الإسلام بطهارة البدن فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

وأمر الإسلام بطهارة المكان قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

والحفاظ على البيئة من التلوث يحمى المجتمع من الأمراض التى تسببها البكتريا والطفيليات المتعددة كالبلهارسيا وأمراض الكوليرا والتيفود وغير ذلك من هذه الأمراض، وللتلوث مظاهر عديدة كالصرف غير الصحى والإساءة إلى نهر النيل العظيم وإلقاء القمامة فيه، وإلقاء الفضلات فى الطريق العام، وحرق القمامة فى غير الأماكن المخصصة لها، وعوادم السيارات وسمومها والتلوث الضوضائى الذى يؤدى إلى الصمم الضوضائى لأنه يحطم أجهزة السمع، والغبار الذى يثار من المصانع الأسمنتية وغيرها. كل هذا ينبغى أن نتلاشاه من حياتنا وأن نعمل على توعية الناس بالأضرار التى تلحقهم نتيجة هذه الأفعال. فكلما كانت البيئة نظيفة كانت حياة الناس مستقرة خالية من الأمراض الصحية التى تفتك بهم.

ولقد اتخذ الإسلام أساليب وقائية للحفاظ على البيئة من التلوث، من ذلك الابتعاد عما فيه هلاك للإنسان كشرب الخمر والمسكرات والتدخين قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وكذلك حرم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير حفاظاً على صحة الإنسان، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ [المائدة: ٢].

إن المحافظة على البيئة تكون بالنظافة وتخلية البيوت والشوارع من القمامات التى تنبعث منها رائحة غير طيبة، وتكون بيئة للحشرات ومصدراً للعلل وانتشار العدوى وخصوصاً الذباب الذى يكثر انتشاره فى فصل الصيف وخطره معلوم فى نشر عدوى الحميات وأمراض العيون، وكم من عين سليمة نقلت إليها ذبابة صغيرة مرضاً من الأمراض فأتلفتها ولم يستطع صاحبها أن يسترجع بصره الذى كان يتمتع به.

* * *

الدعوة إلى السلام

إن الإسلام هو دين السلام، من أجل ذلك تكررت الدعوة إليه والأمر به في القرآن الكريم في مواضع عديدة وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وهي دعوة عامة شاملة تُقرر أن من صفات المؤمنين دخولهم في السلم، وطالب القرآن الكريم بإفشاء السلام إلى أقصى مدى وأوسع نطاق إذ جعله التحية بين المؤمنين، تقول الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

بل إن السلام هو تحية المؤمنين يوم يلقون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بنص الآية الكريمة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وهكذا تتكرر الآيات التي تدعو إلى السلام، وليس هناك من دليل على اهتمام القرآن الكريم بالسلام يعدل تقريره أن الله سبحانه قد اختار بنفسه لنفسه السلام ليكون من أسمائه الحسنی وصفاته العليا وذلك بالنص الشريف قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وأنه جل شأنه قد اختار هذا الاسم وهذه الصفة ليطلقها على الجنة إذ إنه سبحانه، وتعالى يدعو إلى دار السلام وذلك بالنص الكريم: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ولهذا فقد استجاب سيدنا رسول الله ﷺ لداعى الله والقرآن فكان جداله لخصومه بالتي هي أحسن تنفيذاً لأمر الله بالنص الشريف قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وكان دفعه ﷺ السيئة بالحسنة وذلك امتثالاً لأمر الله سبحانه قال تعالى: ﴿لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولما اشتد إيذاء الخصوم له وللمسلمين وتحملوا فوق طاقتهم وأكثر من قدرتهم وظلموا، كان لا بد لهم من امتشاق السلاح ودفع الأذى بالقوة فكان الأمر بالقتال والإيذان به دفعاً للظلم وذلك بالنص الشريف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ولكن إذا اعتزل الأعداء وتوقفوا عن القتال فلا مندوحة من قبول السلام الذي يعرضونه بإيقافهم العدوان وذلك تنفيذاً لأمر الله سبحانه قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

بل إن الله سبحانه قد أمر أمراً واجب الأداء مفروض التنفيذ: أنه إذا رغب الأعداء في السلام اتجه المسلمون إليه وذلك بالنص الكريم: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

وما يجب علينا أن نتأمله ونتدبره ذلك النص الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، هذه الآية تدعونا لإعداد القوة لإرهاب العدو حتى لا يفكر في الاعتداء علينا وبذلك نكون قد فرضنا عليهم السلام بقوة السلاح هكذا يطالبنا الإسلام بالسلام... نبحث عنه وندعو له ونحرص عليه، ولو أدى الأمر إلى فرضه بالقوة.

فإن السلام إنما هو السبيل إلى إصلاح الأرض، والحرب هو طريق إفسادها وقد أصلح الله الأرض ودعانا لمباشرة إصلاحها وأمرنا ألا نفسد فيها ولكن إذا ما اعتدى على الوطن أو على الأهل أو على العرض وكان لا بد من القتال يدعونا الإسلام إلى الدفاع إلى أبعد مدى وأقصى طاقة، والله من وراء القصد يحق لنا السلام ويجعلنا من الداعين له العاملين عليه المتسكين به.

* * *

حسن الجوار في الإسلام

لقد أكد الإسلام حق الجوار سواء كان جاراً قريباً أو بعيداً أو أجنبياً أو مرافقاً في السفر أو زميلاً في تعلم العلم أو كان جالساً إلى جوارك في مجلس فقد قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وجعل الإسلام إكرام الجار لجاره دلالة على الإيمان بالله واليوم الآخر فقال صلوات الله وسلامه عليه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (رواه البخاري).

كما جعل الإسلام من دلائل الإيمان وكماله أن يأمن الجار بوائق جاره أي غوائله وسروره.

فقال صلوات الله وسلامه عليه: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه» (رواه البخاري).

ومن حقوق الجار أن يبدأ المسلم جاره بالسلام ولا يكسر من السؤال عن حاله والتتبع لأخباره، وعليه أن يعود جاره إذا مرض وأن يعزيه إذا كان مصاباً وبهنته إذا فرح ويصفح عن زلاته ولا يتطلع إلى عوراتهِ ولا يضيق طريقه إلى الدار ولا يتطلع إلى ما يحمله إلى داره ويرشده إلى ما يجهله من أمور دينه ودنياه. وللجار حق وإن لم يكن مسلماً.

وعلى المسلم أن يطيع الله في جاره.

وأما إذا زاد الجار في شره وإيذائه لجاره ولم يجد معه الصبر ولا الملاينة فعليه

بتحرك الرأي العام معه، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له
النبي: ﷺ اصبر ثم قال له في الثالثة أو الرابعة:

اطرح متاعك في الطريق.

قال: فجعل الناس يرون به ويقولون: مالك؟ فيقول: آذاه جاره فجعلوا يقولون:
لعنه الله فجاءه جاره فقال له: رد متاعك فوالله لا أعود (رواه أبو داود والحاكم).

وايذاء الجار وعدم القيام بحقه يحبط عمل صاحبه لأن الإسلام دين
عبادة ومعاملة.

* * *

الرفق

من الصفات الكريمة التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم وخاصة من تصدى لدعوة الناس إلى الخير ونهيهم عن الشر لين الجانب وحسن الخلق ليكون التأثير أبلغ والاستجابة أقوى، وهذه الصفة من أهم ما يجب أن يتحلى به الداعية في طريق الإصلاح والتبليغ والدعوة إلى الله.

إن الله سبحانه حينما أمر موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ليذكراه بربه أمرهما أن يخاطباه بالقول اللين وبالكلام الرقيق، فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب وأن يوقظ القلب للتذكر كأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان.

قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿٤٤﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وهذا القول اللين الذي أمرهما الله به في هذه الآية قد جاء ما يفسره في آيات أخرى وهي قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين.

ولقد كان رسول الله ﷺ ليناً رفيقاً بأتباعه في كل أحواله بدون إفراط أو تفريط بسبب الرحمة العظيمة التي منحه الله إياها. قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرسول ﷺ لم يكن فظاً غليظ القلب لذلك التف أصحابه من حوله يفتقدونه بأرواحهم ويحبونه حباً يفوق حبهم لأنفسهم ولأولادهم ولآبائهم ولأحب الأشياء لديهم،

لقد كان رحيمًا بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صحابٍ فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح (ابن كثير ج ١ ص ٤٢٠).

إن الرسول ﷺ كان يأمر بالرفق، روى البيهقى عن عمرو بن شعيب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أمر بمعروف فليكن بمعروف». وروى مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه، ولا يُنزعُ من شيء إلا شانه». وفى رواية لمسلم «إن الله رفيق يحب الرفق ويُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العنف، وما لا يُعطى على سواه».

قدوته ﷺ العملية فى الرفق:

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بال أعرابى فى المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه فقال النبى ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً (دكلاً) من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبى أمامة رضى الله عنه أن غلاماً شاباً أتى النبى ﷺ فقال: (يا نبى الله أأذن لى فى الزنى) فصاح الناس به فقال النبى: «قريبوه .. ادن» فدنا حتى جلس بين يديه فقال عليه الصلاة والسلام: «أتحبه لأملك؟» قال: لا، جعلنى الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم» وزاد الراوى ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقول فى كل واحدة: لا، جعلنى الله فداك والنبى ﷺ يقول: «كذلك الناس لا يحبونه» ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره، وقال: «اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه» فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنى.

* * *

الاستغفار

الاستغفار معناه: طلب الغفران من الله - عز وجل - عن الذنوب التي يقترفها المستغفر، والتماسه سعة حلم الله به، وهو - أي المستغفر - إنما يطلب المغفرة عن ذنوب صدرت منه وندم عليها، وخشى الله من أجلها... وبين هذا ومعنى التوبة شيء من الاتساق كما هو المتبادر وإن كان من فرق فهو أن الاستغفار على الأغلب يكون من المؤمنين في حين أن التوبة تكون من المؤمنين وغير المؤمنين.

لقد أخبر الله عن نفسه بأنه كثير المغفرة واسع الرحمة لعباده المؤمنين وأن عذابه هو العذاب الشديد للمشركين والعاصين، قال تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿حَمْدُكَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [٢] غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ [غافر: ١-٣]، والله سبحانه كثير المغفرة لمن تاب من الشرك وآمن بما يجب أن يؤمن به، وعمل عملاً صالحاً ثم واطب على ذلك حتى يلقى ربه. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. ولقد بين الله سبحانه في محكم كتابه بأنه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك بالله. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]. ولقد أمر الله المؤمنين بالاستغفار، قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وفي القرآن آيات كثيرة تحكى استغفار الأنبياء منها استغفار نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويحكى القرآن استغفار الملائكة للمؤمنين الذين تابوا إلى الله واتبعوا الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ

رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾. وفى القرآن آيات كثيرة تحكى استغفار المؤمنين وطلبهم الغفران من الله، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولقد وردت أحاديث نبوية عديدة فى حصّ المؤمنين على الاستغفار وتعليم بعض صيغه وبيان فوائده منها حديث رواه البخارى والترمذى وأبو داود عن شداد بن أوس، قال النبى ﷺ سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

أثر الاستغفار:

إن المؤمن إذا استغفر ربه أعطاه الله نعمًا ليست مشوبة بالمكدرات والمنغصات التى تُثْقِلُ الإنسان فى دنياه وإنما هو عطاءٌ يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه. قال تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتَّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. إن قوم نوح ﷺ لما كذبوه زمنا طويلا حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم فرجعوا إلى نوح ﷺ فقال: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه. قال نوح لقومه كما يحكى القرآن: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

روى أبو داود والنسائى بسند صحيح عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب». هذا والفائدة من الاستغفار تتحقق بالندم على الذنب والعزم على الإصلاح وعدم الرجوع إلى الذنب ولا تكون بحركة اللسان والشفيتين وحسب.

الجدل بالحسنى

الجدل: اللدُّ فى الخصومة والقدرة عليها. يقال: جَادَلْتُ الرجلَ فجدلته جدلاً أى غلبته (لسان العرب - جدل).

والجدل نوعان: ممدوح ومذموم - فالممدوح ما كان الغرض منه إظهار الحق، والمذموم ما كان الغرض منه دفع الحق وإظهار الباطل. وفى الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (رواه أحمد والترمذى)، فالمراد بالجدل فى الحديث: الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا إظهار الحق. ومن هنا نفهم السرفى ورود آيات فى القرآن تأمر بالجدل، وورود آيات أخرى تذر الجدل.

فمن الآيات التى وردت فى الأمر بالجدل قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالِئِي هِي أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومن الآيات التى وردت فى ذم الجدل المقصود منه دفع الحق وإظهار الباطل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤].

ولقد جادل أنبياء الله الكفار لدفع الحق وإظهار الباطل فهذا نوح يقص القرآن جدل الكفار معه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥) ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٦) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مُكْهُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي

أَعْيَكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ [نوح: ٢٥ - ٣٥].

وهذا ابراهيم عليه السلام يجادله النمرود لدفع الحق وإظهار الباطل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ولقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أَنْ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَأَنْ يُجَادِلَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

أهمية الجدل بالحسنى:

إن النفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعُر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطمئن هذه الكبرياء الحساسة، ويشعُر المجادل أن ذاته مصونة وقيمتها كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر، ويشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، فلا ضرورة للمحاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله قال تعالى: ﴿إِنْ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

* * *

الدعاء

معنى الدعاء:

الدعاء هو الابتهاال إلى الله بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه فى كشف السوء عنه.

أهمية الدعاء:

إن المرء ضعيف أمام الأحداث فى هذه الحياة، فلا يجد سنداً لضعفه غير الدعاء. ولقد شعر الإنسان بهذا الضعف منذ نشأ لا سيما فى وقت الشدة إذا نزلت به نازلة أو ألت به مُلِمة فهو فى حاجة إلى من يعينه على جلب الخير له ودفع المكروه عنه. والعصر الذى نعيشه شاعت فيه المغريات وتنوعت وفشت الأثانية وانحطت المدارك وكثر البلاء والابتلاء ولا شىء يمسحُ عن هذه النفوس صداها، ويزيل عنها بلاءها ويمحو بؤسها وشقاءها إلا الدعاء والالتجاء إلى الله فهو ملجأ كل لائذ، ورجاء كل خائف عندما تشتد الكروب وتنقطع الأسباب، وحينئذ يجد المسلم فى نفسه الراحة والطمأنينة، ويجد فى دعائه التعزية والسلوى، والدعاء من مستلزمات العبادة، إذ هو الصلة التى تربط بين الإنسان وخالقه، والدعاء هو العبادة؛ عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. (أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال: صحيح الإسناد)، وإنما كان الدعاء هو العبادة لأن منزلته فيها كمنزلة الرأس من الجسد فهو عمادها ودعامتها، فالدعاء ما هو إلا اتجاه إلى الله بقلب سليم، واستعانة به بإخلاص ويقين لكى يُدفع المكروه ويمنح الخير، والإنسان فى حالة الدعاء بإخلاص يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى مؤدياً لأشرف ألوان العبادة، والدعاء علاج نفسى لكثير من أمراض النفس، فإذا أفضى الإنسان المحزون إلى ربه ما يعانيه، وطلب منه ما يتغيه فإنه يشعر بطمأنينة وبنفحة روحية تنتشله مما هو فيه من الهم والضيق، وذلك لأن الإيمان يقتضى الاعتقاد التام بأن الله قريب منه مجيبُ دعوته. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولقد عُنِيَ القرآن بالدعاء وحث عليه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَمْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، والدعاء له شأنٌ عظيم عند الله فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ» (رواه أصحاب السنن والحاكم). إن الإكثار من الدعاء طريقٌ إلى رحمة الله، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ فَتَحَ لَهُ بَابَ الدُّعَاءِ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ» (رواه الترمذی). إن الدعاء فرج للنفوس التي تكاد تُشرف على الهلاك وهو يمحو الخوف ويهبُ الطمأنينة للقلوب المضطربة.

من آداب الدعاء:

أولاً: التضرع والخشوع حال الدعاء، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراب: ٥٥]، ومعنى خفية أى سرّاً فى النفس لئلا يبعد عن الرباء.

ثانياً: الإلحاح فى الدعاء، والإلحاح فى الدعاء ممدوح؛ لأنه تدللٌ وخضوع، قال ﷺ: لِرَجُلٍ أَلَحَّ فِي الْمَسْأَلَةِ وَهُوَ يَسْمَعُ مِنْهُ: «أَوْجِبَ إِنْ خَتَمَ» يعنى إِنْ خَتَمَ دَعَاءَهُ بِأَمِينٍ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ (رواه أبو داود).

ثالثاً: أن يبدأ بنفسه فعن أبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ بِدَأْ بِنَفْسِهِ» (رواه الترمذی).

رابعاً: صدقُ الرجاء فى الإجابة بدون تعجل، عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلَبَ غَافِلٌ لَاهٍ» (رواه الترمذی)، وقال ﷺ: «يَسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» (أخرجه البخارى ومسلم).

خامساً: أن يدعو بما يتفق مع تعاليم شريعة الإسلام.

سادساً: أن يكون مطعمه حلال، قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص «يَا سَعْدُ أَطْبِطْ مَطْعَمَكَ تَسْتَجِبْ دَعْوَتَكَ» (أخرجه الحافظ).

* * *

القول الحسن

إن المؤمن التقى القوى الأمين لا ينطق إلا بما يُرضى الله، فيزن كلامه بالقسطاس المستقيم؛ لأن الإسلام بلا حظ مشاعر الناس وأحاسيس الآخرين فمن أراد أن يتكلم فليقل خيراً أو ليصمت، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (البخارى). وأفضل الناس قولاً من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم؛ لأن الصمت فى مواضعه من شيم الرجال، والنطق فى مواضعه من كريم الخصال، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

إن الكلمة الطيبة - كلمة الحق - مثلُ الشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان لأنها سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل، وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحّمها فى الفضاء، فهى مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة أنا بعد آن .. وإن الكلمة الخبيثة - كلمة الباطل - مثل الشجرة الخبيثة، قد تهيج وتتعالى وتتشابك، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل نافشة هشّة وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكانها على وجه الأرض.. وما هى إلا فترة ثم تجث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧]. لقد أمر الله بالقول الحسن، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ما المراد بالقول الحسن؟

والقول الحسن المراد به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن كلمة الدعوة أحسن كلمة تقال في الأرض وتصدق في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة، ومع الاستسلام مع الله الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ولقد أمر الله نبيه أن يدعو إلى سبيله بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم بالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وكذلك على الداعية أن يجادل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن النفس الطاهرة البريئة من أدران الرذائل والوساوس والهواجس لا تضغن ولا تحقد ولا تهتف بما لا تعرف فمقت الشرثرة وتأبى الإسفاف ولغو القول ولكنها تسمو وترتفع ولا تقابل السيئة بالسيئة والله يقول: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]. لقد أمر الله عباده أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه، بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة.. فالشيطان ينزع بين الإخوة بالكلمة الخبيثة تفلت وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو المودة والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء... والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب تُنْدى جفافها وتجمّعها على الود الكريم، والشيطان يتلمس سقطات الفم وعثرات اللسان فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق وتحفظ حرم الأخوة أمانا من نزغاته ونفثاته.

* * *

العفة

إن الشاب المسلم يرغب فى الزواج لكن فى بعض الأحوال يكون المال غير متيسر لديه.. إنه يريد أن يستجيب لدواعى الغريزة بالرباط المقدس، ولكن قد تحول دونه بعض العقوبات، إنه يريد أن يُكَبِّى نداء الرسول فى دعوة الشباب إلى الزواج لكنه أحياناً لا يجدُ المال ولا يجد من البيئة التى يعايشها عطف الإنسان على أخيه الإنسان!! إذن ما السبيل إلى إحسان نفوس الشباب والحد من ثورة غرائزهم الجامحة؟ السبيل إلى ذلك هو أن يستجيب الشباب لدعوة القرآن الكريم فى التمسك بحبل الإعفاف والتسامى، وهذا هو الطريق الوحيد فى إصلاح نفوس الشباب وإحسان فروجهم والترفع عن هواجس نفوسهم الأمارة بالسوء قال تعالى: ﴿وَلْيَتَعَفَّفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

والاستعفاف: طلب العِفَّة واختيار طريق الفضيلة التى من وسائلها غض البصر عن المؤمنين والمؤمنات الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التى توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد أو ما يشبه ذلك، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف، وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله من فضله رزقاً يستعينون به على إتمام الزواج فقلوه تعالى: ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد كريم من الله تعالى للتائقين إلى الزواج العاجزين عن تكاليفه بأن الله سبحانه سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه متى اعتصموا بطاعته، وحافظوا على أداء ما أمرهم به.

لقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات بحفظ فروجهم عما لا يحل لهم، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٤) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿[النور: ٣٠]، لقد بين الله أن من صفات المؤمنين المفلحين أنهم أعفاء مسكون لشهواتهم لا يعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله لهم وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة

إيماناً حقاً أن تصان فيها الأعراض، وأن يحافظ فيها على الأنساب، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله تعالى.

ما ثمار حفظ الفرج كما وضحها القرآن؟

بين الله أن حفظ الفرج هو أحد الصفات التى يرث المؤمن بسببها (الفردوس) والفردوس أعلى الجنات وأفضلها، ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا سألتكم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»، فحفظ الفرج أحد الصفات التى يرث المؤمن بسببها «الفردوس»، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١]، إن الله بين فى كتابه أن حفظ الفرج هو أحد الصفات التى أعد الله لأصحابها بسببها مغفرة وأجرًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّالِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، كل هذا لأن حفظ الفرج يتم به صيانة الأبدان وحفظ الأنساب، وحماية أواصر الأسرة من أن تلعب بها الأهواء، وإحكام الروابط حتى لا تعبت بها يد الفساد، وبذلك يشيع فى المجتمع الراحة والسكينة، ويدفع بأبنائه إلى إجادة أعمالهم وحسن عبادتهم لله خالقهم.

* * *

الخشوع

الخشوع فى اللغة: السكون والطمأنينة ومعناه شرعاً خَشْيَةُ القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح فيجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدى الله سبحانه، إن الله يشرح للإسلام قلوبا يعلم منها الخير ويصلها بنوره فتشرق به وتستضىء. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢١]، هذه الآية تصور حقيقة القلوب التى تتلقى الإسلام فتشرح له وتندى به وتصور حالها مع الله حال الانسراح والتفتح والندوة والبشاشة والإشراق والاستنارة.

مجالات الخشوع:

أولاً: الخشوع فى الصلاة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١] الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ [٢] ﴿٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. والمعنى لقد فاز وظفر بالمطلوب أولئك المؤمنون الصادقون الذين من صفاتهم أنهم فى صلاتهم خاشعون بحيث لا يشغلهم شىء وهم فى الصلاة عن مناجاة ربهم وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعه كالعبث بالثياب أو بشىء من جسده، فقد أبصر النبى ﷺ رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه» (السنن الكبرى للبيهقى). قال القرطبى: اختلف الناس فى الخشوع هل من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين والصحيح الأول ومحله القلب وهو أول عمل يُرفع من الناس (تفسير القرطبى ج ١٢، ص ٢٠٣). إن الذين هم فى صلاتهم خاشعون تستشعر قلوبهم رهبة الموقف فى الصلاة بين يدى الله فتسكن وتخضع فيسرى الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات ويغشى أرواحهم جلال الله فى حضرته فتختفى من أذهانهم جميع الشواغل ولا تشتغل بسواه وهم مُستغرقون فى الشعور به مشغولون بنجواه،

ويتوارى عن حسهم كل ما حولهم وكل ما بهم فلا يشهدون إلا الله ولا يحسون إلا إياه ولا يتذوقون إلا معناه.

ثانياً: الخشوع عند قراءة كتاب الله.

قال تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، قال ابن كثير - رحمه الله - فى معنى هذه الآية: أى إذا سمع أولئك الذين أنعم الله عليهم كلامه المتضمن حجته ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً، واستكانة وشكراً على ما هم فيه من نعم. فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا فى هذه الآية اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية فسجد وقال: هذا السجود فأين البكاء؟ (تفسير ابن كثير ج ٣، ص ١٢٧)، وهذه الظاهرة من الخشوع والإخبات والتحزن هو ما كان عليه الرسول ﷺ وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: حسبك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان».

ثالثاً: الخشوع عند ذكر الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، يعنى إذا ذكرت صفاته الجليلة وقدرته النافذة ورحمته الواسعة وعقابه الشديد وعلمه المحيط بكل شىء وما يستتبع ذلك من حساب وثواب خافت قلوبهم وفزعت وخشعت استعظاماً لجلاله وتهيباً من سلطانه.

* * *

غَضُّ الْبَصَرِ

إن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس... مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة، ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

لقد أمر الله المؤمنين بغض الأبصار، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

فالمراد بغض البصر: كف النظر عما لا يحل إليه بخفضه إلى الأرض أو بصرفه إلى جهة أخرى وعدم النظر بملء العين وجاء التعبير بقوله سبحانه: «قل للمؤمنين» للإشعار بأن المؤمنين الصادقين من شأنهم إذا أمرهم الرسول ﷺ بأمر فإنهم سرعان ما يمتثلون ويطيعون؛ لأنه ﷺ مبلغ عن الله تعالى الذي يجب الامتثال لأمره ونهيه، وخص سبحانه المؤمنين بهذا الأمر؛ لأنهم أولى الناس بالمخاطبة وبالإرشاد إلى ما يرفع درجاتهم ويعلى أقدارهم. وكما أمر الله المؤمنين بغض الأبصار أمر المؤمنات بمثل ما أمر به المؤمنين تزكية للنفوس وتطهيراً للمجتمع من أدران الفاحشة والتردى فى بؤرة الفساد والتحلل الخلقي وتجنباً للنفوس من أسباب الإغراء والغواية، وقد زاد الإسلام المرأة تزكية وطهراً أن كلفها زيادةً على الرجل بعدم إبداء الزينة لغير المحارم من الأقارب وفرض عليها الحجاب الشرعى ليصون لها كرامتها، ويحفظها من النظرات الجارحة والعيون الخائنة ويدفع عنها مطاعم المغرضين الفجار، ولما كان إبداء الزينة والتعرض بالفتنة من أهم أسباب التحلل الخلقي والفساد الاجتماعى فقد أكد البارئ جل وعلا ذلك الأمر للمؤمنات بتجنب إظهار الزينة أمام الأجانب ليسد نوافذ الفتنة، ويغلق أبواب الفاحشة ويحول دون وصول ذلك السهم المسموم من سهام إبليس وهو النظر، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ

بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: ٣١]، وتلاحظ في هذه الآية أن الله تعالى خص النساء بالخطاب بعد الرجال مع أن النساء يدخلن في خطاب الرجال على سبيل التغليب لتأكيد الأمر بغض البصر ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة إلا في حدود ما شرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرجل؛ لأن علاقتها به ومقصدها منه كمقصده منها ونظرة أحدهما للآخر على سبيل الفتنة وسوء القصد تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه. إن المؤمن يُؤَجَّرُ على غُضِّ البصر؛ لأنه كَفُّ عن المحارم. وقال ﷺ: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها» (رواه البخاري ومسلم وأبو داود).

ولقد استثنى الشارع الحكيم بعض الحالات التي لا يَأْثَمُ فيها المرء بسبب النظر إلى النساء الأجنبية من هذه الاستثناءات:

أولاً: نظرة المفاجأة فلا إثم فيها ولا مؤاخذه؛ لأنها خارجة عن إرادة الإنسان قال النبي ﷺ لعلی: «يا علی لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية» (رواه الترمذي وأحمد)، وعن جرير بن عبد الله «سألت رسول الله ﷺ عن نظر المفاجأة فأمرني أن أصرف بصری» (رواه مسلم وأحمد والترمذي)، والنظرة المفاجئة إنما تكون في أول وهلة ولا يحل لأحد إذا نظر إلى امرأة نظرة مفاجئة، وأحس منها اللذة أن يعود إلى النظرة مرة ثانية فإن ذلك مدعاة إلى الفتنة وطريق إلى الفاحشة.

ثانياً: رؤية المرأة من أجل خطبتها، عن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة فقال لي رسول الله ﷺ: نظرت إليها؟ قلت: لا، قال: فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدَمَ بينكما» (رواه مسلم والترمذي).

ثالثاً: يجوز للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة المشتبه فيها عند تحقيق الجرائم، والقاضي إلى وجه المرأة عند الشهادة، والطبيب إلى وجه المرأة للمعالجة.

* * *

الحب فى الله

الحبُ فى الله من القيم التى تحدد صلة الفرد المسلم بأخيه المسلم تحديداً تنبعث منه العواطف الإسلامية الصادقة حيث يشعر كل مسلم أنه أخٌ للآخر مهما نأت بينهم الديار، يُحب له الخير الذى يحبه لنفسه ويكره له الشر الذى يكرهه لنفسه ويجعل حبه وبغضه فى الله فلا يحب حين يحب إلا لله، ولا يبغض حين يبغض إلا لله، وقد وردت أحاديث فى هذا المعنى بألفاظ متقاربة منها قوله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان» (رواه أبو داود والترمذى وأحمد) والحب فى الله من صميم عقيدة الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه أحمد).

وهذه القيمة من قيم الإسلام - قيمة الحب فى الله - تحدد علاقة المسلم بأخيه، وتضع حداً فاصلاً بينه وبين غيره من أصحاب المعتقدات الأخرى. فالإيمان حب وبغض؛ حب فى الله وبغض فى الله، والحب فى الله من أقوى عناصر الإيمان؛ لأن دافعه رضى الله سبحانه وليس من أجل مصلحة دنيوية.

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلاً زار أخاً له فى قرية فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية، فقال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا غير أنى أحببته فى الله. قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته» (رواه مسلم)، ورؤى عن ذر بن حبيش قال: (أتينا صفوان بن عسال المرادى فقال: أزازرين؟ قلنا: نعم، فقال: قال رسول الله ﷺ: «من زار أخاه المسلم خاض فى الرحمة حتى يرجع، ومن عاد أخاه المؤمن خاض فى الجنة حتى يرجع» (رواه الطبرانى فى الكبير).

وعلى الحب فى الله والبغض فى الله قام المجتمع الأول الذى أرسى قواعده رسولنا ﷺ وأدرك الذين استجابوا للدعوة أن روابط جنسهم وقرابتهم وعلاقات ودهم

ومحبتهم قد انتهى أمرها واستعاض الإسلام عنها بمشاعر الحب فى الله والبغض فيه ليكون بناء المجتمع الإسلامى قائماً على هذا الحب وحده.

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

هذا هو مجتمع الإسلام. والآية تشير إلى ما كان فى غزوة بدر فقد قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر، وهم أبو بكر الصديق أن يقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب ابن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل حمزة وعلى والحارث أقرباء العشيرة؛ لأنهم وقفوا عند قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ويتبع الله هذا بقوله ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أى أولئك الذين وقفوا عند هذه الآية، وأخذوا أنفسهم بها هم الذين استقر الإيمان فى سويداء قلوبهم، وسطرت معانيه بين جوانحهم، فحملهم هذا الإيمان الراسخ على ذلك وكانوا أهلاً لتأييد الله ونصره، وتأتى الإشارة إليهم لاستحضار ما وصفوا به فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ فلا يُنسبُ هذا المجتمع إلى الأصل الذى انحدر منه أو الأرض التى عاش عليها، أو الوطن الذى نشأ فيه أو اللغة التى يتكلم بها إنما ينتسب إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

* * *

الإخاء

إن الأخوة رابطةٌ تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام.. مع كل من تربطك به أواصر العقيدة الإسلامية ووشائج الإيمان والتقوى فهذا الشعور الأخوى الصادق يولد فى نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة فى اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة... واتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضر بالناس فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم ولقد حث الإسلام على الأخوة فى الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

لقد كرم الله الإنسان وكان أعظم تكريم له أنه أرسى حياته على دعائم من العقل والإحساس السامى بقيمة الحياة الاجتماعية وضرورتها فحيثما وجد الإنسان وجدت العلاقات الإنسانية ووجدت الحياة الاجتماعية، ثم إن الله سبحانه حين شاء للإنسان أن يبلغ كماله وأن يصل إلى نضجه المقدور أهبط عليه وحيه بوساطة أنبيائه، فحملوا إليه من تعاليم الأخوة بين بنى الإنسان عامة والأخوة بين المؤمنين خاصة والتحذير من كل ما يوهن هذه العلاقة الربانية بين أبناء الدين الواحد والدعوة إلى الإصلاح ما بين المتنافرين والمتخاصمين والمختلفين حتى تتأكد الأخوة بين جميع المؤمنين وتقوى بها دعائم المجتمع. وكذلك كان حديث الحق سبحانه عن الأخوة إخباراً بما ينبغى أن يكون على أنه كائن فعلاً ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فهذا أمر مستقر لا يكون بدونه إيمان المؤمنين؛ لأنهم حين آمنوا بربهم توحدت وجهتهم، واجتمعت قلوبهم، ومحال أن تتنافر قلوب اجتمعت على الإيمان بالله وعمرها حبُّ الله فإن للإيمان جاذبية تدعو أصحابها إلى التقارب والتعاطف والتساند والتساعد وهذا هو المقصود بقوله سبحانه فى محكم كتابه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولقد آخى النبى ﷺ بين أصحابه عقب الهجرة إلى المدينة فقد جاء المهاجرون إليها، ولا عهد لهم بها من قبل، جاءوا إليها وليس معهم سوى إيمانهم بالله

ورسوله، أما المال والولد والوطن فقد هجروا ذلك كله، وباعوه بما عند الله قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فحين جمعت القرعة المهاجري على الأنصاري كان ذلك حكماً واجب النفاذ على كليهما أن يشارك أخاه طيبة نفسه في ماله وفي داره وفي متاعه بل في زوجاته إن زدن على واحدة وقد حدث ذلك كله على أثر تلك المؤاخاة التاريخية التي استحققت أن ينزل الله في شأنها قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وتلكم هي النعمة الكبرى التي أنعم الله بها على المؤمنين وذكرهم بها في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذه الأخوة تقضى بأنه لا فضل لجنس على جنس ولا للون على لون وبأنه لا أثر لجاه أو حسب في القربى إلى الله فإن الأكرمين عنده هم عباده المتقون قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولقد أكدت أحاديث رسول الله ﷺ الإخاء الإسلامى، قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا» (رواه مسلم)، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعارفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (رواه أحمد)، وقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسَلِّمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، التقوى ها هنا (ثلاث مرات). ويشير إلى صدره» (رواه أحمد). لكن الإسلام لم يتجاهل أن المسلمين قد تغلب الأثرة بعضهم فيستجيون لنزعات الخلاف فشرع لهم الوقاية التى تدرأ عنهم سوء العاقبة وهى أن يحتكموا إلى شرع الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

* * *

الرفق بالحيوان

من مظاهر نعم الله تعالى على الناس أن الله خلق الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم. والقرآن إذ يعرض هذه النعمة ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك: ففي الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار فالثياب التى يستدفنون بها مأخوذة من أصوافها وأوبارها فتقيهم برودة الجو، وفي الأنعام منافع متعددة حيث يتخذون من ألبانها شراباً سائغاً للشاربين ومن لحومها أكلاً نافعاً للكلين. وفي الأنعام جمال وزينة حين يرونها بالعشى من مسارحها إلى معاطفها التى تأوى إليها، وحين يخرجونها بالغداة من معاطفها إلى مسارحها ومراعيها. والأنعام تحمل أمتعة الناس وأثقالهم إلى بلد بعيد لم يكونوا بالغيه إلا بعد تعب شديد قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٥٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا يَشْقَى الْأُنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٥-٥٨].

وفى آية أخرى من القرآن يمتن الله على عباده بأن يسقيهم لبناً من بين الطعام المتبقى فى أمعاء الحيوان بعد هضمه والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وفى آية أخرى من القرآن يحض الله سبحانه عباده على التفكير فى مظاهر قدرته حيث يرون الطيور محلقة فى جو السماء ذلك الطيران ليس بمقتضى طبعها وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك كالأجنحة وغيرها. هذا المنظر الجميل قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب، وما يتلفت القلب البشرى عليه إلا حين يستيقظ ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب، قال

تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَكِّنُ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

من أجل هذه النعم الكثيرة التي أنعم الله بها علينا أمرنا الله أن نتعامل مع الأنعام والطيور وغيرها برفق لأنها تتألم كما نتألم وتشعر بالراحة كما نشعر، فينبغي ألا نسبب لها ألماً أو تعباً؛ لأن تعذيب الحيوان أمر يؤدي إلى دخول النار عقاباً لمن يفعل ذلك، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امرأة في هرة (قطّة) سجنّتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقّتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض (يعنى الهوام والحشرات)» (متفق عليه).

أما الرفق بالحيوان والإحساس به يقرب إلى الله ويكون سبباً لمغفرة الله لمن يفعل ذلك فإن كان الحيوان جائعاً قدم إليه الطعام، وإن كان ظمأً سقاه، كل هذا يقرب الإنسان من خالقه. عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى (التراب) من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا يا رسول الله: وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر» (رواه مسلم).

ولقد بلغ الإسلام من الرفق بالحيوان أن رسول الله ﷺ أمر كل من يذبح حيواناً أن يحسن الذبحة بأن يُحْدَ الشفرة التي يذبح بها حتى يكون الذبح سريعاً فلا يتعذب الحيوان، وألا يذبح حيواناً أمامه حتى لا يخاف ولا يضطرب، وكذلك أمر الذابح أن يريح الذبيحة عند الذبح. عن أبي يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا العِلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحْدِ أحدكم شفرته وليريح ذبيحته» (رواه مسلم).

* * *

الحرص على الفلاح

من حكمة الله عز وجل البالغة أن خلق الإنسان وقدر له أجلاً مسمى عنده ومنحه الله سبحانه وتعالى نعماً هي فوق حصر الحاصرين وتصور المتصورين وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى ممتناً على خلقه: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وهذه النعم التي تعد منحة من الله تعالى قد جعلها الله سبحانه وتعالى فتنة يختبر بها خلقه وأفلح من فاز بهذا الاختبار من الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، والله سبحانه وتعالى يمنح عباده نعماً ليشكروهم ويأخذ منهم بعضها ليصبروا على قدره، والإيمان نصفان، نصفه صبر ونصفه شكر، ومن هؤلاء الذين يفوزون بخيرى الدنيا والآخرة هؤلاء الذين يجعلون هذه الحياة وسيلة للقاء الله عز وجل ورضاه.

المؤمن حقاً هو الذى يريد حرص الآخرة ليفوز بسعادة الدارين.

حقاً إن المؤمن هو الذى يعمل للآخرة يرجو ثوابها والله سبحانه وتعالى يضاعف له الجزاء إلى سبعمائة ضعف أما من يعمل للدنيا وجلب لذاتها فإن الله عز وجل يؤتيه ما يريد وليس له فى الآخرة نصيب من نعيمها يقول عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، أى ومن كان سعيه موجهاً إلى الآخرة ويريد بأعماله وكسبه ثوابها فإن الله عز وجل يوفقه لصالح الأعمال ويجزيه الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله ومن كان سعيه موجهاً إلى شئون الدنيا وطلب طيباتها وليس له هم فى أعمال الآخرة فإن الله عز وجل يؤتيه ما قسمه له وليس له فى ثواب الآخرة حظ ولا نصيب، ومعنى هذا أن الكيس الفطن هو الذى يفوز أمام هذا الاختبار الذى جعله الله سبحانه وتعالى لخلقه، فمن فاز أمام هذا الاختبار فقد زحزح عن النار وأدخل الجنة بفضل الله تعالى ورحمته.

المال والولد فتنة:

لقد بين سبحانه وتعالى أن الإنسان بفطرته مجبول على حب المال والولد يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥] أى أن حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار إذ كثير ما يترتب على ذلك الاعتداء على حدود الله وذلك بالوقوع فى المعاصى وارتكاب كبير المحظورات وفى ذلك ما رواه الترمذى وغيره عن كعب بن عياض، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتى المال» وعليه كان على المسلم أن يحذر الوقوع فى المعاصى بسبب الأولاد أو كنز المال وما ينبغى له أن يؤثر عرض الدنيا على ما عند الله من الأجر العظيم، إن من الناس من تلته الحياة الدنيا بعرضها وبخاصة ما يتعلق بالمال والولد فلا يستطيع أن يوازن حقوق الله عليه ويتبين مشاغله نحو المال والولد، ومنهم من يضيع أداء الصلاة فى أوقاتها بدعوى أن العمل قد أخذ وقته ولا ريب أن من فعل ذلك فقد وقع فى إثم ووزر فما ينبغى أن يشغله شىء عن أداء فريضة الصلاة فى أوقاتها كما أمر الله سبحانه وتعالى، ولقد حذرنا الله عز وجل من هذا المسلك الذى يقع فيه كثير من الناس، وذلك بتزيين من الشيطان، فقال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، أى لا يشغلكم تدبير أموالكم والعناية بشئون أولادكم عن القيام بحقوق ربكم وأداء فرائضه ولقد ورد فى الأثر: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

* * *

اتقاء الشبهات

من رحمة الله عز وجل بالإنسان أن خلقه وسواه ولم يتركه سدى بل بين له طريق الهداية حتى يجتنب السبل ويتبع صراط الله المستقيم وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، من أجل ذلك بين الله سبحانه وتعالى ما أحل وما حرم في كتابه وسنة نبيه المطهرة بل إن الإنسان بفطرته يمكن أن يعرف الحلال والحرام وذلك إذا كانت فطرته نقية طيبة فالفطرة السليمة توافق دائماً الحق ولهذا ورد في الحديث الصحيح عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر والإثم؟ قلت: نعم، قال: استفت قلبك إلى ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» (رواه أحمد)، ومع هذا فالله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته قد بين الحلال والحرام لعباده بوحي أوحاه إلى رسله فالحلال بين والحرام بين، حيث إن الحلال المحض بين لا اشتباه فيه وكذلك الحرام المحض ولكن بين الأمرين أمور مشتبهة على كثير من الناس هل هي من الحلال أم من الحرام؟ وفي ذلك ما ورد في الصحيح عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبّهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» (رواه النسائي).

اتقاء الشبهات وقاية وحسن حتى لا يقع المسلم في الحرام:

إن المتدبر في هذا الحديث الشريف يتراءى له رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده حيث شرع لهم ما يحصنهم ويقيهم الوقوع في المعاصي وذلك من باب سد الذرائع ولهذا نجد أن الإسلام حرم أشياء كأنها تفضي إلى الوقوع فيما يغضب الله سبحانه

وتعالى، وذلك من باب سد الذرائع، لقد حرم الإسلام مثلاً الفاحشة وحرم كل مقدماتها ودواعيها من تبرج جاهلى واختلاط عابث، وحرم الإسلام الخمر ولعن النبى ﷺ شاربها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه ولا ريب أن الإنسان السوى إذا لم يتقِ الشبهات فإن ذلك سيجره إلى الوقوع فى الحرام، فمنطقة الشبهات التى يلتبس فيها أمر الحل والحرمه على بعض الناس إما لاشتباه الأدلة وإما للاشتباه فى تطبيق النص على هذه الواقعة.

قد جعل الإسلام من الورع أن يجتنب المسلم هذه الشبهات حتى لا يجره الوقوع فيها إلى موقعة الحرام وهو - كما يقول أهل العلم - نوع من سد الذرائع وهو أيضاً لون من ألوان التزكية والتربية التى لا توجد إلا فى وحى الله تعالى الذى أنزله على رسوله ﷺ .

الرسول واتقاء الشبهات:

لقد طبق الرسول ﷺ اتقاء الشبهات بقوله وسلوكه العملى، يقول ﷺ: «إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى فأرفعها لأكلها ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها» (رواه مسلم)، وفى حديث آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ أصابه أرق من الليل فسأله بعض نسائه عن ذلك فقال ﷺ: «إنى وجدت ثمرة تحت جنبى فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه» (رواه أحمد) كل هذا يؤكد أن المسلم الذى يريد السلامة لدينه وعرضه عليه أن يجتنب الشبهات ومن ذلك كل موقف يرى أنه قد يجر عليه شبهة مصداقاً لقول النبى ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (رواه الترمذى).

* * *

اختيار صاحب الخلق الحسن

من أعظم ما ينعم الله به على عبده أن يشرح صدره ليكون محباً للصالحين الذين اتصفوا بمكارم الأخلاق مجتنباً من عرف بسوء الخلق، ذلك لأن كل من أحب في الله لا بد أن يبغض في الله فمن أحب إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن رآه يجهر بالمعصية ويصر عليها ويشتم هذا ويسب هذا حتى صار من المفلسين بوصف رسول الله ﷺ فحينئذ لا بد أن يبغضه في الله لأنه عاص لله وممقوت عند ربه، فمن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لصدته وإظهار البغض يكون بالإعراض عنه والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه حتى يكون زجراً له، لأنه إذا وجد إعراضاً من الناس فقد يجره هذا إلى أن يلوم نفسه ليعود إلى الله عز وجل بالتوبة والاستغفار، من أجل ذلك فإن الصحبة لا تصلح لكل إنسان والكيس الفطن من اختار صاحب الذي يعينه على الخير وفي هذا يقول النبي محمد ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، كل هذا واختيار صاحب لا بد أن يتميز بخصال وصفات تكون مرغوبة في الصحبة.

ما هي هذه الصفات التي إذا اتصف بها قوم أو أفراد صاروا أهلاً للصحبة وذلك من منظور إسلامي؟

لقد تناول الإمام أبو حامد الغزالي هذا الأمر وذكر صفات هي من النفاسة بمكان وقد استقاها من الشريعة الغراء وفي جملتها أن يكون صاحب عاقلاً حسن الخلق غير فاسق، ولا حريصاً على الدنيا، إذ لا خير في صحبة الأحمق وقد قيل مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى، ولا ريب أن حسن الخلق أمر لا بد منه لأن من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن واتبع هواه فلا خير في صحبته ولقد جاء في ذلك آيات كثيرة تشير إلى هذه المعاني ومنها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى اختيار صاحب فى سفره فى الهجرة المباركة من مكة إلى المدينة، لقد اختار أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وأبو بكر الصديق قد جمع الله فيه من خصال الخير التى قد لا تتوفر فى صاحب آخر، لقد انفرد بهذه الصفة التى أطلقها عليه رسول الله ﷺ حيث قال له: «وأنت يا أبا بكر الصديق» وفى وصايا أحد الصالحين لابنه فى اختيار صاحب الخلق الحسن حيث قال له: اصحب من إذا خدمته صانك وإن صاحبتك زانك، واصحب من إذا مددت يدك لخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سأله أعطاك وإذا نزلت بك نازلة واساك، واصحب من إذا قلت صدق قولك وإن تنازعتما ترك. ويقول سليمان الدراني رحمه الله: لا تصحب إلا أحد رجلين، رجلاً ترتفق به فى أمر دنياك ورجلاً تزيد معه وتنتفع به فى أمر آخرتك والاشتغال بغير هذين حمق كبير.

ما هى الحقوق التى تنبثق من الأخوة والصحة؟

لا ريب أن هناك حقوقاً يوجبها الإسلام فى الصحة حتى تكون الثمرة المرجوة التى تبتغى منها والتى تثمر خيرى الدنيا والآخرة لقد وصف الله سبحانه وتعالى صحة عباده الصالحين بأنها قائمة على الأخوة فى الله التى يمتد حبها فى الدنيا والآخرة، يقول سبحانه: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

من أجل ذلك فإن للصحة حقوق فى المال وفى الإعانة بالنفس واللسان والقلب ولذلك قالوا بأن مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، فهما يتعاونان على غرض واحد، وكذلك الأخوة فى الله إنها تتم بالطريقة المثلى إذا قامت على مقصد واحد وهو التعاون على البر والتقوى، وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء فالصاحب الصالح هو الذى إذا استنصحه نصحك دون ميل عن الحق أو هوى فى النفس وهو يسكت عن إفشاء السر كما أنه يذكر المحاسن ويغفل عن المساوىئ إذا وجد لها فى الخير محملاً.

* * *

حفظ السر

من حكمة الله عز وجل البالغة ورحمته بعباده أن جعل سرائر خلقه له سبحانه وتعالى وحده فهو عز وجل يعلم السر وأخفى وهو سبحانه وتعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ٩ ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ١٠ ﴿[الرعد: ٩، ١٠]، ولا يستقيم حال المجتمع إلا بحفظ الله تعالى لخلقه ولو أن الله تعالى أعطى قدرة للإنسان ليطلع على سريرة الآخرين لأدى ذلك إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير، والكيس الفطن من أثر الصمت إلا فى خير ولهذا قال النبى محمد ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (رواه البخارى) ومن صفات الأخوة فى الله أنهم يحرسون على حفظ أسرارهم الخاصة وأسرار بعضهم بعضاً، ومن القربات عند الله عز وجل أن يحفظ الرجل سر زوجه فلا يفشى ما يكون بينهما من الأسرار الزوجية التى جعلها الله سبحانه وتعالى فى ستر وحجاب، وبها كرم الإنسان على سائر الدواب التى خلقها الله عز وجل، ولقد جاء فى القرآن الكريم الثناء على الزوجات الصالحات وبين عز وجل بأنهن ﴿قَاتَنَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، ومن الغيب الذى أوجب الإسلام أن يحفظ ما يكون بين الزوج وزوجه من علاقة خاصة فلا يصح لذى خلق حسن ومروءة أن يتحدث فى المجلس مع صديقه بما يكون بينه وبين زوجه لأنه سلوك ذميم يخل بإنسانية الإنسان وكرامته عند الله والناس، ولهذا ورد عن نبينا محمد ﷺ قال: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها» (كنز العمال للمتقى الهندي)، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال: «مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابَه وأرخى سترة ثم يخرج فيحدث بأهلى كذا وفعلت بأهلى كذا» فسكتوا فأقبل على النساء فقال: «هل منكن من تحدث؟ فجئت فتاة على إحدى ركبتها وتناولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها، إى والله

إنهم يتحدثون وإنهن يتحدثن فقال ﷺ: هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك كمثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه» (مسند أحمد).

حفظ السر بين الأخ وأخيه بوجه عام:

إن من صفات المؤمنين حقاً السكوت عن إفشاء السر لأنهم يعلمون بأنه سبيل إلى الغيبة والنميمة وهما من الكبائر فالمؤمن حقاً يعلم بأن أخاه نازل منزلته ولقد بين النبي محمد ﷺ حال المؤمن الذي يستر عورة أخيه فقال: «ومن ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة» (الإتحافات السنية)، ولقد قيل لأحد الصالحين كيف حفظك السر قال: أنا قبره فإن صدور الأحرار قبور الأسرار، وفي وصية العباس عم النبي ﷺ لابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما إنى أرى هذا الرجل - يعنى عمر رضى الله تعالى عنه - يقدمك على الأشياء فاحفظ منى خمساً: لا تفشين له سرّاً ولا تغتابن عنده أحداً، ولا يُجرين عليك كذباً، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانه، ولا ريب أن هؤلاء الذين يفشون أسرار الناس ويتحدثون عنهم بما لا يعينهم دون حق، هم ضالون مضلون وسلوكهم هذا يؤدي إلى الفحشاء والبغضاء وقطع أواصر القربى بين الناس وهو سلوك مرده تزوين الشيطان وبخاصة في المجالس التي تهوى إفشاء الأسرار ويصدق فيهم قول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، ومن أخطر ما يصاب به المرء أن يستتره الله سبحانه وتعالى لذنب ألم به ثم بوساوس من الشيطان وتزوين منه يفشى سر نفسه ويتباهى بذنبه ويجهر به، وهنا يقع في خسران الدنيا والآخرة، من أجل ذلك كان حفظ السر إلا حاجة خُلِق أولياء الله وخاصته الذين حرصوا على أن يكون نطقهم ذكراً وقولهم هو النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم.

* * *

إفشاء السلام

فقد شرع الإسلام خصائص ومزايا يعرف بها المسلم وبها كرمه الله سبحانه وتعالى وكلما ازداد حرصاً عليها ازداد قرباً عند الله عز وجل، ومن ذلك تحية الإسلام التي يعرف بها المسلم وهذه التحية أخذت من اسم من أسماء الله عز وجل، إنها تحية تبدأ بالسلام الذي يعنى الأمان فإذا لقي المسلم أحداً من خلق الله بادره بقوله «السلام عليكم»، وفى هذا ذكر لاسم من أسماء الله الحسنى فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه فى الأرض فأفشوه بينكم» (مجمع الزوائد للهيثمى)، من أجل ذلك جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة بيان لهذه التحية المباركة وفضلها عند الله سبحانه، يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، أى وإذا حياكم أحد بتحية فردوها بتحية مثلها أو تحية أحسن منها فقولوا لمن قال: السلام عليكم، وعليكم السلام، أو وعليكم السلام ورحمة الله، فالأحسن أن تقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ومعنى هذا أنه من الإحسان أن يزيد المجيب على المبتدئ كلمة أو أكثر تخلقاً بمكارم الأخلاق التى تدعو إلى التنافس فى الخير وتسابق الخيرات حتى يزداد المؤمن ودّاً وتتألف القلوب وهو ما دعا إليه الإسلام، يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً» (صحيح البخارى)، ثم إن حسن الجواب قد يكون بمعناه أو بكيفية أدائه، فمن قال: السلام عليكم بصوت خافت، فالأولى أن يقال له: وعليكم السلام وبصوت أرفع وبإقبال يشعر بالعناية والتكريم، ومن فعل ذلك يكون قد حيا بتحية أحسن من تحية المبتدئ فى صفتها، وإن كانت فى مثلها فى لفظها، وفى هذا يقول أهل العلم إن الجواب على التحية له مرتبتان، أدناها ردها بعينها، وأعلىها الجواب عنها بأحسن منها، والمجيب مخير بينهما، إلا أن الأولى أن يجيب بالأحسن، هذا ولقد علمنا الإسلام أن نرد على السلام إذا ورد من خلق الله تعالى دون استثناء، فلقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن

رسول الله ﷺ قال: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه، وإن كان مجوسياً فإن الله عز وجل يقول: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رודהا» (مجمع الزوائد للهيثمي)، ولا ريب أن هذا من الآداب الإسلامية السامية والناس إذا ألفت هذه الآداب عرفوا فضل الإسلام.

هل هناك أحاديث وردت في إفشاء السلام وفضله؟

لقد وردت أحاديث كثيرة عن نبينا محمد ﷺ تحض على إفشاء السلام وفضله، وذلك لأنها سبيل إلى الألفة والتحاب وإزالة الوحشة، وغرس الأمان بين الناس، فعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه أبو داود)، ويُن نبينا محمد ﷺ أن الطريق إلى إزالة البغضاء والحسد يتأتى في إفشاء السلام، وهو مفتاح الجنة وسبيل إلى رضوان الله تعالى، فعن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين، والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت لكم ذلك؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه أحمد)، ثم إن نبينا محمداً ﷺ قد بين أن تحية الإسلام سبيل إلى الود ونبذ البغضاء والشحناء، ومن ذلك قوله ﷺ: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعو له بأحب الأسماء إليه» (مستدرک الحاكم).

الحرص على تحية الإسلام دون غيرها خلق دعا إليه الإسلام:

إن هؤلاء الذين بدلوا تحية الإسلام بتحايا أخرى وقد تكون غريبة على المجتمع الإسلامى، وذلك مثل التحايا التى تكون بألفاظ غير عربية، نقول: أن هذا خلق بعيد عن الطريقة المثلى، وهؤلاء يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، ويعد راسباً من رواسب الجاهلية، والأولى أن نحرص على تحية الإسلام ففيها الأمان والخير وفيها اسم من أسماء الله الحسنى.

اجتناب تتبع عورات الناس

من صفات المؤمن حقاً إنه إذا قال صدق، وإذا قيل له صدق، وهو يغلب دائماً حسن الظن بالناس، إلا إذا بدا له بالبرهان ما يخالف ذلك، وهو حينئذ لا يستعجل فى الحكم حتى يتثبت، من أجل ذلك دعانا ربنا إلى اجتناب كثير من الظن وبين سبحانه وتعالى بأن بعضه إثم لأنه قد يؤدى إلى إلصاق التهمة بإنسان وهو منها برىء، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ولا ريب أن عدم الثقة فى الآخرين يؤدى إلى البلبلة والشعور بالخوف والفرع والقلق وعدم الأمن، وكل ذلك مردّه سوء الظن ومنهج الله عز وجل الأقوم يربى الأمة المسلمة على نظافة الظاهر والباطن معاً، ولهذا نهى الإسلام عن سوء الظن وقرنه بالنهى عن التجسس، وذلك لأن هناك رباطاً وثيقاً بين سوء الظن والتجسس، ولقد ورد فى الصحيحين أن النبى محمد ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا» (رواه البخارى)، والتحسس هو البحث عما يكتُم عنك، والتجسس طلب الأخبار والبحث عنها، ومن الخلق الذميمة حرص الإنسان على سماع حديث الناس مع كراهتهم لذلك، وهو ما يسمى بالتصنّت، لذلك فهو خلق نهى عنه الإسلام، إذا وقع بين الأفراد فى داخل المجتمع، لأنه صورة من صور تتبع عورات الناس ومحاولة كشف المستور، وهو خلق يخالف حقوق الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى، ولذلك جاء الوعيد والنذير على لسان نبينا محمد ﷺ لمن تسمع حديث قوم يكرهون أن يسمعه، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال: «ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة» (المعجم الكبير للطبرانى)، والآنك: هو الرصاص المذاب. إن من الناس من يجد لذة بتزيين من الشيطان فى سماع أخبار الناس التى لا تعود عليه بنفع، ونبينا محمد ﷺ قد بين بأن الخلق الحسن يتأتى فى التخلق بهذا الخلق الطيب، وهو: من حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعييه، والإنسان إذا أغلق بابَه على نفسه كان من الأولى تركه وحسابه على الله عز وجل، إلا إذا كانت هناك حاجة

تتعلق بأمن المجتمع وظهرت بوادر تدل على أن هناك عملاً يضر بالمجتمع أو يزعزع أمنه، يقول عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه: (حرس ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغظ فقال عمر رضى الله تعالى عنه: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم، وقال أبو قلابة: حدث عمر ابن الخطاب أن أبا محجن الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل فقال أبو محجن: إن هذا لا يحق لك قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه.

الإسلام يحرم تتبع عورات الناس فما هى الأدلة على هذا؟

لقد حرص الإسلام على عدم تتبع عورات الناس لما فيه من محاولة كشف سريرتهم والأولى بالمسلم أن يأخذ الناس بظاهرهم وحسابهم بعد هذا على الله عز وجل، ومن خلق المسلم أنه يستر عورة أخيه، ولا يتتبع عورته يقول ﷺ: «من ستر عورة فكأنما استحيا موءودة فى قبرها» (رواه أحمد)، ونبينا محمد ﷺ قد حذر هؤلاء الذين يتتبعون عورات الناس من التدنى إلى خصال المنافقين حيث خاطبهم بقوله فى خطبة على منبره الشريف حيث نادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه الله عز وجل، ولو فى جوف رحله» (رواه الترمذى) ثم إنه من أجل الحفاظ على حرمان الناس حرم الإسلام أن يطلع الإنسان على قوم دون إذن منهم، وأوجب القرآن ذلك على الناس الذين دخلوا تحت راية الإسلام فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

* * *

حسن اختيار الألفاظ

لقد كان ﷺ يتخير في خطابه، ويختار لأُمته أحسن الألفاظ وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والفُحش، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً ولا فظاً، فعن أبي عبد الله الجدلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: «كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزى بالسبيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح» (أخرجه البخاري في صحيحه ٥٥/٨، ومسلم في صحيحه - كتاب المساجد باب ٤٨، وكتاب الأدب باب ٥، وكتاب الفضائل باب ١٣).

لقد أمر الله عباده أن يختاروا القول الحسن عند كلامهم مع الناس جميعاً سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وكان الرسول ﷺ يتخير اللفظ المناسب لكل واحد من الناس، فكان رسول الله ﷺ يكره أن يستعمل اللفظ الشريف في حق من ليس كذلك فكان ﷺ يمنع أن يقول للمنافق سيد، وكان يمنع تسمية أبي جهل بأبي الحكم، كذلك غير اسم أبي الحكم من الصحابة بأبي شريح وقال: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم» (رواه النسائي).

وكذلك نهى ﷺ المملوك أن يقول لسيده ربى، وللسيد أن يقول لمملوكه: عبدى وأمتى، وقال ﷺ لمن ادعى أنه طبيب: «أنت رفيق والله الطبيب» (رواه أحمد). والجاهلون يسمون الكافر الذي له علم بشيء من الطبيعة (حكيمًا)، وهذا أمر لا يجوز، ولقد علم النبي ﷺ الناس كيف يختارون اللفظ الحسن فقال ﷺ للخطيب الذي قال: (ومن يعصهما فقد غوى)، أى ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، قال له النبي ﷺ: «بئس الخطيب أنت» (رواه مسلم)؛ لأنه جمع الله ورسوله فقد غوى، قال له وهذا لا يجوز، ولقد علمنا ﷺ كيف نختار الألفاظ لنتقى الشرك فقال ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان» (رواه أبو داود)، وفي معناه قول من لا يتوقى الشرك فينبغى على الإنسان أن لا يقول: (ما لى إلا الله وأنت، وأنا متوكل على

الله وعليك، وهذا من الله ومنك)، وأمثال هذه الألفاظ التى يجعل قائلها المخلوق ندًا لله، وهى أشد منعًا وقبحًا من قول الإنسان ما شاء الله وشئت، فأما إذا قال: ما لى إلا الله ثم أنت فلا بأس بذلك.

ولقد نهى الرسول ﷺ المسلمين أن تُطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها، فنهى عن سب الدهر وقال: «إن الله هو الدهر» (رواه أحمد)، إن سب الدهر أى الزمن مثل الأيام والليالى والشهور والسنين فيه ثلاث مفاصد: أحدها سب من ليس بأهل، الثانية أن سبه متضمن للشرك، فإنه ما سبه إلا لظنه أنه يضر وينفع، وأنه ظالم، الثالثة: أن السب إنما يقع على فاعل هذه الأفعال التى لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حصدوا الدهر وأثنوا عليه، وكذلك نهى النبى ﷺ أن نقول للشيطان: أخزاه الله وقبحه الله، لأن ذلك يفرح الشيطان ويشعره بالتعظيم والقوة، فعن أبى مليح عن رجل قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: «لا تقل: تعس الشيطان فإنك إن قلت ذلك تعظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتى ولكن قل: باسم الله فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب» (رواه أبو داود)، فإنه ينبغى على المسلم أن يستعيز بالله من وساوس الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

* * *

الحفاظ على الصحة

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، إن الله سبحانه وتعالى أرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعنى عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيهما، فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين.

إن الصحة والعافية من أجل نعم الله على عباده وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة من أجل النعم على الإطلاق، فحقيق بمن رُزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يضاؤها.

ولهذا قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (رواه البخاري)، وفي الترمذي مرفوعاً «من أصبح معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»، وفي الترمذي أيضاً مرفوعاً «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال: ألم نصح لك جسمك؟ ونرويك من الماء البارد؟»، ومن هنا قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، قال: عن الصحة ولأحمد مرفوعاً: «سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيراً من العافية» فجمع بين عاقبتى الدين والدنيا ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقاب الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه، وفي سنن النسائي مرفوعاً: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة»، وهذه الثلاثة أعنى العفو والعافية والمعافاة تضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو والحاضرة بالعافية والمستقبلية بالمعافاة.

لقد كان رسول الله ﷺ يحافظ على صحته، فكان قدوة حسنة لأمته، فلم يكن

من عادته ﷺ حبس النفس على نوع واحد من الأغذية، فإنه مضر ولو أنه أفضل الأغذية، بل يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة، والخبز والتمر ونحو ذلك. قال أنس رضي الله عنه: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله، وإلا تركه» (متفق عليه بلفظ، وإن كرهه فتركه)، ومتى أكل الإنسان ما لا يشتهي كان تضرره به أكثر من نفعه، وكان ﷺ يحب اللحم، وأحبه إليه الذراع ومقدم الشاة، وهو أخف على المعدة وأسرع هضماً، وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل، وهذه الثلاثة أغنى اللحم والحلوى والعسل من أنفع الأغذية للبدن والكبد والأعضاء.

إن أكل الفاكهة من أسباب حفظ الصحة، ولذلك كان ﷺ يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ولا يمتنع عنها، وهذا من أسباب حفظ الصحة فإن الله سبحانه بحكمته جعل في كل بلد فاكهة، وكان رسول الله ﷺ يعلمنا كيف نستفيد من الشرب فصح عنه ﷺ أنه نهى عن الشرب قائماً وأمر من فعله أن يتقيأ، وصح عنه أنه شرب قائماً للحاجة، وكان ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً ويقول: «إنه أروى (أى أشد رياً) وأبرأ (أى يشفى من العطش)، وأمرأ (أى أكثر لذة وسهولة إذا دخل البدن وخالطه)»، وللترمذى عنه مرفوعاً: «لا تشربوا نفساً واحداً كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى، وسموا الله إذا شربتم واحمدوا الله إذا أنتم فرغتم».

* * *

إبرار المقسم

من حق المسلم على المسلم أن يبرّ قسمه إذا أقسم عليه أن يفعل شيئاً مباحاً، عن أبي عُمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع وما أمرنا به إبرار المقسم».

ومعنى الإبرار بالقسم أنه إذا أقسم عليك أخوك بشيء فبرّه ووافق على ما أقسم عليه فإذا حلف وقال: والله لتفعلن كذا وكذا فإن من حقه عليك أن تبرّ بيمينه وأن توافقه إلا إذا كان فى ذلك ضرر عليك مثل: لو حلف عليك أن تخبره عما فى بيتك من الأشياء التى لا تحب أن يطلع عليها أحد فلا تخبره، وكذلك إذا حلف عليك أن تعمل شيئاً فيه معصية فلا تبره مثل: لو أقسم عليك أن تعطيه نقوداً ليشتري بها مخدرات أو خمر وغير ذلك من الأمور المحرمة فلا تجبه لذلك، أو حلف عليك بشيء يضرك كأن يقول أبوك مثلاً: والله لا تحج البيت، والحج واجب عليك فإنك لا تطيعه؛ لأن فى هذا تركاً للواجب، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، أو حلف عليك ألا تزور أمك، وقد طلقها، وصار بينه وبينها مشاكل فكرهاها، فقال لك: والله لا تذهب إلى أمك فهذا لا تطعه، وذلك لأنه آثم يكونه يحول بينك وبين صلة الرحم، وصلة الرحم واجبة، وير الوالدين واجب فلا تطعه.

ومن ذلك أيضاً إذا حلف ألا تزور أحداً من إخوانك أو أعمامك أو أقاربك فلا تطعه، ولا تبره بيمينه. ولو كان أباك؛ لأن صلة الرحم واجبة، ولا يحل له أن يحلف مثل هذا الحلف، وصلة الرحم إذا قام بها الإنسان فإن الله تعالى يصله، فقد تعهد الله للرحم أن يصل من وصلها، وأن يقطع من قطعها، فإذا انتفت الموانع فإن الأولى أن تبر بهن، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك

لك، ثم قال رسول الله ﷺ: اقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ ﴿٢٢﴾ فَهَلْ عَمِيتُمْ أَن تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٤﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] (رواه البخارى ومسلم).

وهنا مسألة وهى أنه ربما يحلف هو وتحلف أنت فهنا من الذى يبر بقسمه الأول هو الذى يبر بقسمه، والثانى يحنث ويكفر عن يمينه. ثم إنى أشير عليكم بأمر مهم، أنك إذا حلفت على يمين فقل: إن شاء الله، ولو لم يسمعها صاحبك، لأنك إذا قلت إن شاء الله يسر الله لك الأمر حتى تبر بيمينك، وإذا قدر أنه حصل الذى لا تريد فلا كفارة عليك وهذه فائدة عظيمة، لقول النبى ﷺ: «من حلف على يمين فقال: إن شاء الله لم يحنث»، وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائماً، اجعل الاستثناء بـ (إن شاء الله) على لسانك دائماً حتى يكون فيه فائدتان: الفائدة الأولى: أن تيسر لك الأمور.

الفائدة الثانية: أنك إذا حنث ما يلزمك الكفارة.

* * *

الوفاء بالعهد

إن الله سبحانه وتعالى بين فى كتابه بأن الذين ينقضون عهدهم المرة بعد المرة هم شر الدواب قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا تَثَقَفُفْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ [الأنفال : ٥٥ - ٥٧] .

إن الله سبحانه وتعالى يأمر بالوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وتتجلى روعة الإسلام فى الأمر بالوفاء بالعهد مع العدو فضلا عن الأمر بالوفاء بالعهد مع الصديق، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] ، والمعنى: وإما تعلمن - يا محمد - من قوم بينك وبينهم عهد نقض العهد خيانة منهم بأمارات تلوح لك تدل على غدرهم فاطرح إليهم عهدهم على طريق مسترٍ ظاهر: بأن تعلمهم بنبك عهدهم قبل أن تحاربهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنبك العهد سواء؛ لأن الله لا يحب الخائنين وإن من مظاهر الخيانة التى يبغضها الله تعالى أن يحارب أحد المتعاهدين الآخر دون أن يعلمه بإنهاء عهده.

قال ابن كثير: قال الإمام أحمد عن سليمة بن عامر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب منها حتى إذا انقضى العهد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقده ولا يشدها حتى ينقضى أحدهما أو ينبذ إليهم على سواء ». فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة .

وقال الفخر الرازى: قال أهل العلم: آثار نقض العهد إذا ظهرت فيما أن تظهر ظهوراً محتملاً، أو ظهوراً مقطوعاً به، فإن ظهرت آثار نقض العهد ظهوراً محتملاً

وجب الإعلام على ما هو مذكور فى الآية : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ وذلك لأن بنى قريظة عاهدوا النبى ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ فحصل لرسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء ، ويأذنهم بالحرب أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد وذلك كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم فى ذمة النبى ﷺ وصل إليهم جيش رسول الله ﷺ بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة (الفخر الرازى ١٥ / ٢٢٠) . أى أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله ﷺ الذى جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان .

وبذلك نرى تعاليم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أسمى آفاق الوفاء والشرف والأمان وتحقر من شأن الخيانة والخائنين ، وتتوعدهم بالطرد من رحمة الله . ولقد بين الله سبحانه فى كتابه أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين بسبب نقضهم لها ، لكن الذين عاهدوا المسلمين ولم ينقضوا عهودهم ، ولم ينقضوهم شيئاً من شروط العهد ولم يعاونوا عليهم أحداً من الأعداء فهؤلاء أقوا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم معاملة الناكثين ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] .

* * *

التوسل إلى الله بصالح الأعمال

إن الدعاء إلى الله بصالح الأعمال يُنجي الإنسان من الشدائد ويُفرِّج الكربات قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

لقد أخبر الرسول ﷺ أن ثلاثة رجال دخلوا الغار حين أوامهم المبيت فتدحرجت عليهم صخرة من الجبل حتى سدت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها؛ لأنها صخرة كبيرة، فرأوا أن يتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فذكر أحدهم بره التام بوالديه، وذكر الثاني عفته التامة، وذكر الثالث ورعه ونصحه. أما الأول فيقول: «إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً»، لقد كان لهذا الرجل غنم يسرح بها، ثم يرجع آخر النهار، ويحلب الغنم ويعطى أبويه الشيخين الكبيرين ثم يعطى بقية أهله وعبيده، فأبعد به طلبُ الشجر الذى يرعاه ذات يوم فرجع فوجد أبويه قد ناما فنظر هل يسقى أهله وعبيده قبل أبويه أو ينتظر حتى يستيقظ الأبوان، فرجع الثانى، يعنى أنه بقى فأمسك الإناء بيده حتى طلع الفجر وهو ينتظر أبويه فلما استيقظا وشربا اللبن سقى أهله وعبيده قال: «اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه» يعنى إن كنتُ مخلصاً فى عملى هذا، فعلته من أجلك ففرج عنا ما نحن فيه، فتقبل الله منه هذه الوسيلة وانفجرت الصخرة لكن انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه. فهذا يدل على فضيلة بر الوالدين وأنه من الأعمال الصالحة التى يُفرج بها الكربات ويُزيل بها الظلمات.

والثانى: توسل إلى الله عز وجل بالعفة التامة، وذلك أنه كان له ابنة عم، وكان يُحبها حباً شديداً كأشد ما يحب الرجال النساء فراودها عن نفسها أى بالزنى ليزنى بها، ولكنها لم توافق وأبت، فأصابها فقر وحاجة فاضطرت إلى أن تجود بنفسها من أجل الضرورة وهذا لا يجوز، ولكن هذا الذى حصل فجاءت إليه فأعطاه مائة

وعشرين ديناراً من أجل أن تمكنه من نفسها، ففعلت من أجل الحاجة والضرورة، فلما جلس منها الرجل مجلس الرجل من امرأته على أنه يريد أن يفعل بها قالت له هذه الكلمة العجيبة العظيمة: «اتق الله ولا تفضن الخاتم إلا بحقه» فخوفته بالله عز وجل وأشارت إليه يعنى إن أراد هذا العمل بالحق فلا مانع عندها، لكن كونه يفض الخاتم بغير الحق فهذا ما لا تريده فهي ترى أن هذا من المعاصي، ولذلك قالت له: «اتق الله» فلما قالت له هذه الكلمة التي خرجت من أعماق قلبها دخلت فى أعماق قلبه، وقام عنها، وهى أحبُّ الناس إليه لكن أدركه خوف الله عز وجل فقام عنها، وترك لها الدنانير التي أعطاه لها مائة وعشرين ديناراً ثم قال: اللهم إن كنت فعلت هذا لأجلك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة إلا أنهم لا يستطيعون الخروج.

أما الثالث فتوسّل إلى الله عز وجل بالأمانة والإصلاح والإخلاص فى العمل فإنه يذكر أنه استأجر أجراً على عمل من الأعمال فأعطاهم أجورهم إلا رجلاً واحداً ترك أجره فلم يأخذه، فقام هذا المستأجر فثمر المال فصار يتكسب به بالبيع والشراء، وغير ذلك حتى نما وصار منه إبل وبقر وغنم ورقيق وأموال عظيمة فجاءه بعد حين فقال له: يا عبد الله: أعطنى أجرى فقال له: كل ما ترى فهو لك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: لا تستهزئ بى، الأجرة التي لى عندك قليلة كيف لى كل ما أرى من الإبل والبقر والغنم! لا تستهزئ بى، فقال له: هو لك فأخذه واستاقه كله ولم يترك له شيئاً، ثم قال: اللهم إن كنت فعلت ذلك من أجلك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة وانفتح الباب فخرجوا يمشون؛ لأنهم توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم التي فعلوها إخلاصاً لله عز وجل.

* * *

الاعتصام بالكتاب والسنة

إن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يؤدي إلى الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة الطيبة فى الدنيا، والسعادة التى ليس بعدها سعادة فى الآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إن رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى ما يحييهم إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معانى الحياة... إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيى القلوب والعقول، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والاحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات، إنه يدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الإنسان وتكرمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفًا متساوين فى مواجهتها لا يتحكم فرد فى شعب، ولا طبقة فى أمة ولا جنس فى جنس، ولا قوم فى قوم ولكنهم ينطلقون كلهم أحرارًا متساوين فى كل شريعة صاحبها الله رب العباد، يدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة المتمثلة فى الضوابط التى وضعها خالق الإنسان، والعليم بما خلق، هذه الضوابط التى تصون الطاقة البانية من التبدد، ولا تكبت هذه الطاقة، ولا تحطمها، ولا تكفها عن النشاط الإيجابى البناء... يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم وبربهم والانطلاق فى الأرض كلها لتحرير الإنسان بجملته، وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده خالق العباد وتحقيق إنسانيته العليا التى وهبها الله له فاستلها منه الطغاة.

إنه ﷺ يدعو المؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله لتقرير ألوهية الله سبحانه فى الأرض وفى حياة الناس، وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة، ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله سبحانه وحاكميته وسلطانه، حتى يفيثوا إلى حاكمية الله وحده،

وعندئذ يكون الدين كله لله، حتى إذا أصابهم الموت فى هذا الجهاد كان لهم فى هذه الشهادة حياة.

إن الله سبحانه أمر أهل الإيمان أن يتقوه فى جميع حياتهم حتى يموتوا على ذلك، وأمرهم بالاعتصام بحبله وهو دينه الذى بعث به نبيه ﷺ وهو الإسلام وهو التمسك بالقرآن والسنة ونهى عن التفرق فى ذلك، لما يُفضى إليه التفرق من ضياع الحق وسوء العاقبة، واختلاف القلوب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿[آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ولقد بين الله سبحانه وتعالى أن الهداية فى طاعة الرسول ﷺ واتباع ما جاء به، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ولا شك أن طاعته ﷺ طاعة لله عز وجل واتباع لكتابه العظيم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

* * *

تطهير القلب من الشرك

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أى وما خلقت الجن والإنس إلا لأمُرهم أن يعبدونى ويفردونى بالعبادة، وهذا هو التوحيد الذى جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من عهد نوح ﷺ إلى عهد نبينا محمد ﷺ، والتوحيد يقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى خالق العباد ورازقهم، ومحييهم ومميتهم والدليل على ربوبيته تعالى ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهذا التوحيد لا يدخل الإنسان فى دين الإسلام ولا يعصم دمه وماله ولا ينجيه فى الآخرة من النار إلا إذا أتى معه بتوحيد الألوهية، وهو القسم الثانى من أقسام التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة؛ لأنه المستحق لأن يعبد لا سواه مهما سمت درجته وعلت منزلته، وهو التوحيد الذى جاءت به الرسل إلى أمهم لأن الرسل عليهم السلام جاؤوا بتقرير توحيد الربوبية الذى كانت أمهم تعتقده، ودعوتهم إلى توحيد الألوهية كما أخبر الله عنهم فى كتابه المجيد، قال الله مخبراً عن نوح ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٢٥] أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وهكذا صالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والقسم الثالث من أقسام التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات، فعلى الإنسان المسلم أن يفرد ربه بجميع أنواع العبادات مخلصاً لله فيها وأن يأتى بها على الوجه الذى سنه رسول الله ﷺ قولاً وعملاً فمن صرف شيئاً منها لغير الله يكون مشركاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

[الجن: ١٨]، فأحد جاءت نكرة فى سياق النهى تعم كل مخلوق رسولا كان أو ملكاً أو صالحاً.

إن أول شرك حدث كان فى قوم نوح عليه السلام لما أرسل الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام عاندوا وأصروا على شركهم، وقابلوا نوحاً بالكفر والتكذيب وقالوا كما فى القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فعلى الإنسان المسلم أن لا يذبح إلا لله فى الحديث الصحيح: «لعن الله من ذبح لغير الله» (أخرجه مسلم - كتاب الأضاحى)، ولا يندر ولا يطوف إلا لله، قال تعالى: ﴿وَلْيُؤْفِكُوا وَهْمَهُمْ وَلْيُطَوِّفُوا بِأَلْبَابِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وعلى المسلم ألا يحلف إلا بالله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وفى لفظ «فقد كفر» (رواه أحمد)، وعلى المسلم ألا يستعين إلا بالله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا يتوكل إلا على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ولا يرهب إلا الله ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ [النحل: ٥١]، ولا يستغيث إلا بالله ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

إن من يتوجه فى عبادته إلى غير الله يكون مشركاً شركاً أكبر لا يغفر الله له إلا أن يتوب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

* * *

التجارة مع الله

إن القرآن الكريم يهتف بالذين آمنوا إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة، تجارة الإيمان بالله والجهد فى سبيل الله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

فى هذه الآية يبدأ النداء باسم الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يليه الاستفهام الموحى فالله سبحانه هو الذى يسألهم ويشوقهم إلى الجواب ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ ومن ذا الذى لا يشواق؛ لأن يَدُلَّهُ الله على هذه التجارة؟ ثم يجىء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع ﴿تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ﴾، وهم مؤمنون بالله ورسوله فتُشْرِقُ قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ثم يذكر الله الشطر الآخر لكمال التجارة، وهو قوله تعالى: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ ثم يُعَقِّبُ الله على عرض هذه التجارة التى دلهم عليها بالتحسين والتزين، قال تعالى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ثم يفصل الله هذا الخير فى آية مستقلة؛ لأن التفصيل بعد الإجمال يُشَوِّقُ القلب إليه، ويُقِرُّه فى الحس ويمكن له قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وهذه وحدها تكفى فمن ذا الذى يضمن أن يُغْفَرَ له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شىء؟ أو يدخر فى سبيلها شيئاً؟ ولكن فضل الله ليست له حدود، يضيف الله إلى فضله السابق قوله: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن فى حياته القصيرة حين يفقد هذه الحياة كلها، ثم يُعَوِّضُ عنها تلك الجنات وهذه المساكن فى نعيم مقيم ... وحقا ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وكأنما ينتهى هنا حساب التجارة الرباحة، وإنه لريح ضخم هائل أن يعطى المؤمن من الدنيا ويأخذ الآخرة. فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يَغْبِطُهُ كل من فى السوق فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة معدودة فى هذه الأرض، ومتاع محدود فى هذه الحياة الدنيا فيكسب به خلوداً لا يُعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعاً غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة رضى الله عنه ليلة العقبة قال لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسى أن تمنعونى ما منعتم منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ فقال: الجنة، قالوا: ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل (أى لا نفسخ البيعة ولا نطلب فسخها) (الدر المنثور للسيوطى)، فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قال بعض العلماء: لا نرى ترغيباً فى الجهاد الذى هو أساس التجارة مع الله أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، لأنه أبرزه فى صورة عقد عقده رب العزة، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ونصر دينه وجعله مسجلاً فى الكتب السماوية، وجعل الله وعده حقاً ولا أحد أوفى من وعده.

جدير بنا أن ننظر إلى قول الله فى سورة الصف: ﴿وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [١١]، وقوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [١١١]، فنجد أن فى الآيتين تقييد القتال والجهاد بأنه فى سبيل الله وهذا هو هدف الإسلام من الجهاد والقتال لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

* * *

الأمانة

الأمانة كل ما يجب على المسلم أن يحفظه، ويصونه، ويؤديه، إنها شعوره بمسئولية عن كل ما يوكل إليه، وبذل الجهد في تأديته على النحو الذي يرضاه الله جل في علاه، ولعل هذا ما يفهم من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام:

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «كلكم راع ومستئول عن رعيته، فالإمام راع ومستئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومستئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مستئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مستئول عن رعيته» (أخرجه البخاري).

فالإسلام جعل من الأمانة معنى واسعاً، هو ما يشير إليه هذا الحديث الشريف.

وقد تكرر ذكر الأمانة في القرآن الكريم، ومن الآيات التي ورد فيها ذكرها:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهذه الآية في الرهن، والشئ المرهون أمانة أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، والآية تحذر المسلمين من أن يأمنوا أهل الكتاب خاصة اليهود.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٧]، والآية نزلت لما أخذ على ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة سادنها قسراً، لما قدم النبي مكة عام الفتح، فأمره الرسول ﷺ برده إليه.

واشتهر رسول الله ﷺ بالأمانة حتى عرف بالصادق الأمين، وكانت أمانته ﷺ سبباً فى زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها، لأنه ﷺ لما عاد إلى مكة وقص عليها ميسرة أخبار رسول الله ﷺ قررت الزواج به.

وحرص الرسول ﷺ على أداء الأمانة فى أصعب الأوقات، وأحلك الساعات، فعند خروجه من بيته مهاجراً إلى المدينة قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: «نم على فراشى، واتشح ببردى الأخضر، فتم فيه، فإنه لا يخلص إليك شئء تكرهه»، وأمره أن يؤدى ما عنده من وديعة وأمانة وغير ذلك، (سيرة ابن هشام ١٢٧/١).

وكان رسول الله ﷺ يرغب فى الأمانة ويحث أصحابه عليها فقال لهم: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا صلاة له، وموضع الصلاة من الدين، كموضع الرأس من الجسد» (كنز العمال ٦٣/٣).

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «اضمنوا لى ستاً من أنفسكم، أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتهم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم» (رواه أحمد والحاكم).

* * *

طاعة الزوجة لزوجها

لقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية - خطيبة النساء - أتت إلى النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء كافة، فأمننا بك واتبعناك، وإنا معشر النساء محصورات قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربنا لكم أولادكم، أفنشارككم في هذا الأجر؟ فالتفت النبي ﷺ بوجهه كله إلى أصحابه. ثم قال: «أسمعتكم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟» فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي إليها ثم قال: «افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله».

فانصرفت وهي تهلل، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله رسول الله ﷺ ففرحن.

يتضح لنا من خلال وقائع هذه القصة الممتازة أن طاعة المرأة لزوجها، وعملها على إرضائه أمر على درجة كبيرة من الأهمية؛ لما لذلك من تقوية أواصر المودة.

فعلى الزوجة أن تكون مرهفة الحس، تعمل على مرضاة زوجها، عن طريق توفير القسط الأكبر له من الراحة، والاستقرار في البيت، ويكون ذلك بالإصغاء إلى حديثه، في غير إعراض عنه، أو عدم مبالاة به، فإنها إن فعلت ذلك وداومت عليه بحيث أصبح لها خلقاً وسجية، فإنها ستكسب وده وتنال رضاه، وفي ذلك طريقها إلى الجنة مع التزامها بطاعة الله تعالى.

وهذه الزوجة التى أرادت أن تستوضح من رسول الله ﷺ تلك الأمور التى يفضل فيها الرجال النساء، من حيث تحملهم الكثير من المشاق، وعرضت هذه القضية عرضاً موضوعياً بأسلوب راق، يدل على فصاحتها، فبين لها رسول الله ﷺ أن المرأة المسلمة تستطيع أن تدرك درجة الرجل الذى يقوم بأداء هذه الأعمال جميعاً إذا ما أطاعت زوجها، وأدخلت على حياته البهجة والسرور، وأبدت من التعاون معه ما من شأنه أن يعينهما على مواصلة رحلة الحياة بسهولة ويسر، كما قد أمرها رسول الله ﷺ أن تفهم هذا، وأن تعمل على إفهامه لمن خلفها من النساء، حتى يكن على علم بذلك، فما كان من هذه المرأة إلا أن انصرفت وهى سعيدة بهذا القول الكريم، فلما أخبرت نساء قومها وعرضت عليهن ما قاله النبى لها وما كان منهن إلا أن فرحن بذلك فرحاً شديداً.

بهذا يتضح لنا حفاظ الشريعة الإسلامية على إشاعة جو التفاهم والود فى محيط الأسرة، مبينة أن الزوجة الصالحة التى تقوم بواجبها على الوجه الأكمل تسدى يدأً بيضاء لأفراد أسرتها، وتبرهن على أنها قد استفادت بتوجيهات دينها، وحرصت كل الحرص على أن تضرب المثل والأسوة فى التصرفات المثالية النبيلة، وطالما تمسكت الأسرة المسلمة بهذه الأخلاق فإنها تبرهن للعالم على أن هذه الأمة هى خير أمة أخرجت للناس، وأن هذه التعاليم وتلك المبادئ هى التى تصلح لبناء الأمم، وتعمل على تقدم البشرية تقدماً يفيد البشرية كلها من خلال تلك اللمسات الحانية، والتصرفات الكريمة.

وعليه فإننا نرجو الله تعالى أن يوفق الجميع للأخذ بهذه الأسباب والتحلى بهذه المكارم، حتى تستعيد الأمة والدنيا وجهها المشرق المنير.

* * *

الإيثار

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن الدين الإسلامى الحنيف، الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها، وصبغته التى اصطبغت النفوس بها، قد أحدث فى نفوس البشر متغيرات جذرية، وما يزال إلى الحد الذى يمكننا معه أن نقول: إن هذا الدين قد أحدث فى النفوس والقلوب إعادة لصياغتها، فنصع لباسها، يوم أن نفقت عنها ركام الجاهلية، وأزاحت عن كواهلها قذاها وأذاها، فلو حاولت المقارنة لشخص واحد خلال عهدين، لأبصرت الفارق واضحاً لذلك الشخص بين عهديه من الكفر والإيمان، حتى ليخيل لك أنهما شخصان لا شخص واحد، وما حدثت هذه النقلة الهائلة إلا بفضل استئناء القلوب والنفوس بنور مولاها وخالقها، وشغفها بالمكارم والفضائل التى تضى عليها سمّت الصلاح والوفاء.

وإذا كان تاريخ العرب حافلاً بأخبار الكرم والكرماء قبل ظهور الإسلام، مما يعد مضرب الأمثال، فإننا لو أمعنا النظر فى هذه السجية لوجدنا أنها كانت تشوبها شوائب الأنانية، فهذه المجتمعات لم تكن لتفكر فى شىء إلا فى المصالح الذاتية، والتصرفات الأنانية، فقد أصبح الكرم عندهم وسيلة للتفاخر، وكسب الشهرة، بالرغم مما يحوطه من إغاثة اللهفان، وسد رمق الجوعان؛ فالفضائل الإنسانية إذا لم تصادف عيشة صحيحة توجهها وتقدمها وتحوطها بالرعاية والعناية، ذهبت بها الأهواء والأغراض كل مذهب.

ولقد كان الدرس الأول الذى لقنه النبى ﷺ لمجتمع المدينة المنورة، والذى يضم الأنصار والمهاجرين، كان الدرس هو درس الكرم والإيثار، أى أن الإسلام قد وجه الكرم وجهته الصحيحة، وزاد عليه شيئاً آخر لم يكن معلوماً من قبل، ألا وهو أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه، وهكذا يحاصر الإسلام البخل بتوسيع دائرة الكرم

والإيثار، ويخلص ذلك كله من آثار الجاهلية ليكون فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، والآية التى جعلناها عنواناً لموضوعنا هنا قد أنزلت فى مدح الأنصار وموقفهم البطولى من إخوانهم المهاجرين، حتى إنهم قالوا: يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض (أرض المدينة) نصفين، قال: «لا، قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال: لا، قالوا: تكفوننا المثونة ونشرككم فى الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا» (رواه البخارى) فأنزل الله هذه الآية.

كما ورد فى بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة قال: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال: ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً، قالت: والله ما عندى إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، أو عليهم، وتعالى فأطفئ السراج، ونطوى بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ وقد أخرج مُسَدَّدٌ فى مسنده، وابن المنذر عن أبى المتوكل التاجى أن رجلاً من المسلمين فذكر نحوه، وفيه أن الرجل الذى أضاف هو ثابت بين قيس بن شماس.

وقد أخرج الواحدى من طريق محارب بن وثار عن ابن عمر قال: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات، حتى رجعت إلى أولئك (أى الذى أهديت إليهم) فنزلت الآية.

وهكذا روى رسول الله ﷺ أصحابه وأمته على حب الإيثار فضربوا للناس أروع الأمثلة، وبرهنوا بذلك على حسن ثقتهم فى الله، وحاولوا جاهدين أن يبرهنوا على صدق معتقدهم بالبراهين العقلية والحياتية.

فليقس كل واحد منا نفسه على هذه الموازين البطولية، وبخاصة فى أوقات الشدائد فى محاولة جادة لكشف الضر عن البائسين.

حبُّ الخير للناس

إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً تامَّ الإيمان إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، هذا هو المؤمن حقاً. فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وآله قال: « لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه » (متفق عليه)، إنه ينبغي على الإنسان أن يحب ما أنعم الله به على غيره من الناس، وينبغي ألا يكره ما أنعم الله به على غيره من الناس؛ لأن حب الإنسان ما أنعم الله به على غيره دليل على نقاء القلب والإيمان الكامل بالله والرضا بقضاء الله وقدره، أما إذا كره الإنسان ما أنعم الله به على غيره فيكون خبيث النفس، معترضاً على قضاء الله وقدره، وهذا هو شأن الحاسد الذي يكره ما أنعم الله به على غيره سواء تبنى زوال النعمة أم لم يتمنَّ، وإن كان بعض العلماء يقول: إن الحسد أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره، لكن هذا أخبثه وأشدُّه، وإلا فمجرد كراهة الإنسان أن ينعم الله على شخص فهو حسد، والحسد من خصال غير المسلم، فمن حسد فهو متشبه بهم والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى فيهم: ﴿أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

إن اليهود حسدوا النبي صلَّى الله عليه وآله؛ لأن الله منحه النبوة وهو رجل عربى ليس منهم وحسدوا أتباعه؛ لأنهم آمنوا به وصدقوه، والتفوا من حوله يؤازرونه، ويفتدونه بأرواحهم وأموالهم، واليهود بحسدهم للنبي صلَّى الله عليه وآله على ما آتاه الله من فضله يكونون قد ضلوا وساروا فى طريق الشيطان؛ لأنهم لو كانوا عقلاء ما فعلوا ذلك إذ إنهم يعلمون علم اليقين أن الله تعالى قد أعطى آل إبراهيم كإسماعيل - وهو جد العرب - وإسحاق ويعقوب وغيرهم أعطاهم التوراة والإنجيل والزيور وغيرها، وأعطاهم العلم النافع مع العمل به، وأعطاهم سلطاناً واسعاً وبسطه فى الأرض. ومع

ذلك فأنتم أيها اليهود لم تحسدوا هؤلاء على ما أعطاهم الله من كتاب وحكمة،
وملك عظيم، فلماذا تحسدون محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله مع أنه من نسل
إبراهيم عليه السلام؟

إن من مفسد كره ما أنعم الله به على غيره أنه يعرقل الإنسان عن السعى في
الأشياء النافعة؛ لأنه دائماً يفكر ويكون في غم، كيف جاء هذا الرجل مال؟ كيف
جاءه علم؟ كيف جاءه ولد؟ كيف جاءته زوجة؟ وما أشبه ذلك فنجده دائماً متحسراً
منطوياً على نفسه، ليس له هم إلا تتبع نعم الله على عباده واغتنامه بها. أما
المؤمن الطيب القلب هو الذي يفرح إذا أنعم الله على غيره بنعمة، قال تعالى: ﴿وَلَا
تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، فهذا نهى من الله عن تمنى
ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من
الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد وبما يصلح المقسوم له من بسط
الرزق أو قبضه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾
[الشورى: ٢٧]، فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم الله له علماً بأن ما قُسم له هو
مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسداً له، هذا ولا يدخل في التمنى المنهى عنه ما
يسميه العلماء بالغبطة، وهى أن يتمنى الرجل أن يكون له مثل ما عند غيره من خير
دون أن ينقص شيء مما عند ذلك الغير.

وإن قال قائل: ربما يجد الإنسان في نفسه أنه يحب أن يتقدم على غيره في
الخير، فهل هذا من الحسد؟ فالجواب أن ذلك ليس من الحسد، بل هذا من التنافس
في الخيرات قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وقال تعالى:
﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

* * *

الثبات عند الشدائد

لقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزلاً موصولاً بين الأخيار والأشرار، ونزاعاً مستمراً بين الأظهار والفجار؛ وكثيراً ما يُضيق البغاة على المؤمنين ويُنزلون بهم ما يُنزلون من صنوف الاضطهاد إلا أن الله تعالى قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَتَّبِعُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، إن الآية تدعو المؤمنين في كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيساً بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله تعالى ونصره ومعنى الآية: أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفرعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟ !! لا - أيها المؤمنون - إنى أنهاركم أن تظنوا هذا الظن، وأمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يستلزم منكم التأسى بمن سبقكم من المتقين في الصبر والثبات، فالآية الكريمة بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (رواه مسلم).

ولقد حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر، وثبتوا عند الشدائد في سبيل إعلاء كلمة الله، روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجَمَّلُ فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر

حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله أو الذئب على نفسه
ولكنكم تستعجلون» (صحيح البخارى - كتاب الإكراه).

إن أعلى درجات الإيمان هو اليقين، واليقين هو ثبات وإيمان ليس معه شك بوجه
من الوجوه فيرى الغائب الذى أخبر الله عنه رسوله وكأنه حاضر بين يديه، وهو أعلى
درجات الإيمان. وفي غزوة الأحزاب حينما تألب الكفار على رسول الله ﷺ واجتمعوا
على حربه، وتجمع نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم وحاصروا المدينة ليقضوا
على النبي ﷺ وحصل فى هذه الغزوة أزمة عظيمة على أصحاب الرسول قال الله
تبارك وتعالى فى وصفها ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] فلما
رأى المؤمنون الأحزاب، ورأوا هذه الشدة علموا أنه سيعقبها نصر وفرج وقالوا:
﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، قالوا: سيكون
نصر وستفتح ممالك قيصر وكسرى واليمن، وهكذا كان والله الحمد.

هذا غاية اليقين أن يكون الإنسان عند الشدائد، وعند الكرب ثابتاً مؤمناً
موقناً. ينبغى على الإنسان أن يخاف ويخشى من زبغ القلب ويسأل الله دائماً
الثبات فإنه ما من قلب من قلوب بنى آدم إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن
يقبله كيف شاء، إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه.

فنسأل الله مقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على طاعته، وأن يرزقنا الاستقامة
على دينه والثبات عليه.

* * *

ذكر الغير في غيابه بما يسرّه

إن من أدب المؤمن أن يذكر أخاه في غيابه بكل خير يسرّه ويشرح صدره وإن تكلم أحد في حقه دافع عنه؛ لأن المؤمنين إخوة في الدين والعقيدة يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان. فالأصل في العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم فذكرك لأخيك في غيابه بكل خير يقوى هذه الصلة، أما إذا ذكرت أخاك في غيابه بما يسوؤه سيؤثر على الصلة التي بينك وبينه وربما انتهت إلى قطيعة لا يرضى الله عنها ولا رسوله من أجل ذلك نهى الله عن الغيبة فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

والغيبة: أن تذكر غيرك في غيابه بما يسوؤه يقال: اغتاب فلان فلاناً إذا ذكره بسوء وهو غائب، سواء أكان هذا الذكر بصريح اللفظ أم بالكناية أم بالإشارة أم بغير ذلك.

روى أبو داود وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرت أخاك بما يكره، قيل: أ رأيت إن كان في أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»، (رواه الترمذى وصححه).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا «تعنى قصيرة» فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» (رواه أبو داود).

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية، ورجعهما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما

متطوعين وإلحاحهما عليه فى تطهيرهما ، سمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، ثم سار النبى ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلما من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فلما نلتما من أخيكما أنفًا أشدَّ أكلا منه، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها» (رواه ابن كثير فى التفسير وقال: إسناده صحيح).

ثم ساق سبحانه تشبيهاً يُنفّر من الغيبة أكمل تنفير فقال: ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أى اجتنبوا أن تذكروا غيركم بسوء وهو غائب فإن مثل من يغتاب أخاه المسلم كمثل من يأكل لحمه وهو ميت، ولا شك أن كل عاقل يكره ذلك وينفر منه أشد النفور، فالغيبة من الكبائر والقبائح التى تؤدى إلى تمزق شمل المسلمين وإيقاد ثمار الكراهية فى الصدور.

قال الألوسى: وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة وتنحصر فى ستة أسباب:

الأول: التظلم إذ من حق المظلوم أن يشكو ظالمه إلى من يتوسم فيه إزالة الظلم.

الثانى: الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته.

الثالث: الاستفتاء: إذ يجوز للمفتى أن يقول للمفتى: ظلمنى بكذا.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر كتجريح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء بغير علم.

الخامس: المجاهرون بالمعاصى وبارتكاب المنكرات فإنه يجوز ذكرهم بما تجاهروا به.

السادس: التعريف باللقب الذى لا يقصد به الإساءة كالأعمش والأعرج.

* * *

اجتناب الظن السيئ

إن الإسلام يظهر الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ فيقنع في الإثم، ويدعنه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك، أبيض يُكنُ لإخوانه المودة التي لا يخذشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع، وما أروع الحياة في مجتمع برىء من الظنون، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

تبدأ الآية بذلك النداء الحبيب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهباً لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وما دام النهى منصب على أكثر الظن والقاعدة أن بعض الظن إثم فإن إحياء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلاً، لأنه لا يدري أى ظنونه تكون إثماً.

إن قول الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يقيم مبدأ في التعامل، وسياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريئة، ولا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم بل لا يصح أن يكون أساساً للتحقيق معهم ولا للتحقيق حولهم والرسول ﷺ يقول: «إذا ظننت فلا تحقق» (أخرجه الطبراني بإسناده عن حارثة بن النعمان)، ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء مصونة حقوقهم وحریاتهم، واعتبارهم أبرياء حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه، ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقيق من هذا الظن الذي دار حولهم.

فالمراد بالظن المنهى عنه في هذه الآية: هو الظن السيئ بأهل الخير والصالح بدون دليل أو برهان، وحرمة سوء الظن بالناس إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير، وأما أن تظن شراً لتتقيه، ولا يتعدى أثر ذلك إلى الغير فذلك

محمود غير مذموم، وهو محمول على ما ورد من أن الحزم سوء الظن.

فالواجب على المؤمن أن يبتعد ابتعاداً تاماً عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين لأن هذه الظنون السيئة التي لا تستند إلى دليل أو أمانة صحيحة إنما هي مجرد تهم تؤدي إلى تولد الشكوك والمفاسد بين المؤمنين.

والمراد بالبعض في قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، هو البعض المذموم من الظن الذي عبر الله سبحانه عنه قبل ذلك ﴿اجْتَبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾، أي أن الكثير من الظنون يؤدي إلى الوقوع في الذنوب والآثام، فالواجب هو الابتعاد عنه.

قال ابن كثير: ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثيراً منه احتياطاً.

عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد، وسوء الظن، فقال رجل: ما الذي يذهبنهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض» (سنن الدارمي).

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال: كتبت إلى بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من أمراً مسلماً شراً وأنت تجولها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه» (تفسير الألوسي ١٥٦/٢٦٠).

* * *

ستر المسلم

إن للناس حرياتهم وحُرّاماتهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور، ولا أن تُمس بحال من الأحوال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّوْا﴾ [الحجرات: ١٢]، أى خذوا ما ظهر من أحوال الناس، ولا تبحثوا عن بواطنهم، أو أسرارهم، أو عوراتهم، أو ما يعيبهم، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله تعالى.

التجسس مأخوذ من الجس، وهو البحث عما خفى من أمور الناس والمراد من التجسس: النهى عن تتبع عورات المسلمين.

إن القرآن يقاوم هذا العمل الدنىء وهو التجسس من الناحية الأخلاقية ليظهر القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين، وكشف سواتهم، وتشيئاً مع أهدافه فى نظافة الأخلاق والقلوب. هذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية فى نظامه الاجتماعى، وفى إجراءاته التشريعية والتنفيذية.

ففى المجتمع الإسلامى الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرّامات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح فى النظام الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس.

فالناس على ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم، لأن للناس حرياتهم وكراماتهم وحرماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال، وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما ظهر منهم من مخالفات وجرائم وليس لأحد أن يظن بالناس الظنون، بل يجب أن يكون الناس آمنين مطمئنين فى بيوتهم وفى أعراضهم وفى شتى شئون حياتهم.

قال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب، قال: أتى ابن مسعود فقبل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به.

وعن مجاهد: «لا تجسسوا» خذوا بما ظهر لكم ودعوا ستر الله.

وروى الإمام أحمد بإسناده عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فتأخذهم فقال له عقبة: ويحك! لا تفعل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها» (رواه أبو داود والنسائي من حديث الليث ابن سعيد).

وقال سفيان الثوري عن راشد بن سعد، عن معاوية بن أبي سفيان، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»، فقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها (رواه أبو داود منفردا به من حديث الثوري).

وهكذا حفظ الإسلام للناس حرمااتهم، وحراباتهم، وكراماتهم فلا تمس من قريب أو بعيد تحت أى ذريعة أو ستار.

* * *

الصبر على الأذى

إن الواجب على المؤمن أن يقابل ما يحدث له من أذى الغير بالصبر والاحتساب، وانتظار الفرج، ولا يظن أن الأمر ينتهى بسرعة، وينتهى بسهولة.

قد ابتلى الله عز وجل المؤمنين بغيرهم يؤذونهم، وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء، فليصبر ولينتظر الفرج، ولا يمل ولا يضجر بل يبقى راسياً كالصخرة والعاقبة للمتقين، والله مع الصابرين، فإذا صبر وثابر وسلك الطرق واستعد لقتال العدو وتوصل إلى المقصود، ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة؛ لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطا ثابتة منظمة ويحصلون مقصودهم، أما السطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثوروا ويستنفروا فإنه قد يفوتهم شيء كثير وربما صدر منهم زلّة تُفسد كل ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئاً. لكن المؤمن يصبر ويتند ويعمل بتؤدة ويوطن نفسه ويخطط تخطيطاً منظماً يقضى به على أعداء الله من المنافقين والكفار، ويفوت عليهم الفرص لأنهم يترصون الدوائر بأهل الخير يريدون أن يثيروهم حتى إن حدث من بعضهم ما يريدونه من اندفاع نحو القتال حينئذ استعلوا عليهم، وقالوا: هذا الذى نريد وحدث بذلك شر كبير.

ولذلك لما كان المسلمون الأوائل فى مكة ضعفاء أمرهم الله بالصبر ولم يأذن لهم بالقتال مع ما كانوا يعانونه من أذى واضطهاد المشركين وذلك فى نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] وقوله: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ [الفرقان: ٦٣]، وأمثال هذه الآيات كثيرة تدل على أن المؤمنين كانوا منهيين عن قتال أعدائهم فى وقت الضعف، وهناك نص صريح بالكف عن القتال وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا

أَيَّدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴿٧٧﴾ [النساء : ٧٧] .

ولقد رسخ النبي ﷺ الثبات والصبر في نفوس أصحابه عندما كان في مكة، فعن أبي عبيد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال صلوات الله عليه: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (رواه البخاري).

والحكمة في الكف عن القتال في بدء الدعوة هي أن المسلمين كانوا في مكة قلة، وهم محصورون فيها لا حول لهم ولا طول، ولو وقع بينهم وبين المشركين حرب أو قتال لأبادوهم عن بكرة أبيهم، فشاء الله أن يزدادوا، وأن يكون لهم أنصار وأعوان، وأن يرتكزوا على قاعدة آمنة تحميها الدولة.

فيجب علينا أن نصبر على أذى الكفار وأن نتمسك بعقيدتنا، فأنت أيها المؤمن لا تسكت عن الشر ولكن اعمل بنظام وتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج ولا تمل فالدرب طويل، فإن القائمين بصد الناس عن دينهم سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون فاقطع عليهم السبيل وكن أطول منهم نفساً وأشد مكرًا، فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

* * *

عدم التعميم فى الحكم على الناس

من عدالة الإسلام أنه لا يحكم على الناس بحكم واحد، ولذلك نجد القرآن يذكر كلمة «أكثر» فيقول مثلاً: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وكذلك فى حكمه على اليهود لا يعمم الحكم عليهم بأنهم كلهم أعداء للرسول ﷺ وللمسلمين، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٤] وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [١١٥] [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

إن الحكم على اليهود فى القرآن بنى على الغالب الكثير لا على الجميع، فمنهم ناس اختاروا الإسلام ديناً وآمنوا بالله سبحانه ورسوله ﷺ حق الإيمان، فالآية تذكر أن جماعة من أهل الكتاب آمنوا بالرسول ﷺ ونذكر من هؤلاء اثنين كان كلاهما من أبحار اليهود وهما: عبد الله بن سلام، ومخيرق.

وجاء من أخبار السيرة فى إسلام عبد الله بن سلام أنه قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نترقبه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة، فذهب إليه وقال له: يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهت - أى يكذبون - بالباطل - وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى فإنهم إن علموا بهتوني وعابوني، وأدخلنى الرسول ﷺ فى بعض بيوته فدخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم سألهم أين الحصين بن سلام؟ وكان اسمه هذا قبل الإسلام، فقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وعالمنا.

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم فقال لهم: يا معشر يهود: اتقوا الله واقبلوا

ما جاءكم به الرسول ﷺ، والله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه.

فقالوا: كذبت فقلت لرسول الله ﷺ ألم أخبرك أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور. فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى جميعاً، ولقد كانوا يكثرون من الطعن فيه ويقولون إنه من الأشرار عندنا وهم الذين ذكروا أنه من خيرهم وأعلمهم وأعدلهم، ولكنهم يكفرون بما يعلمون ويكتمون ما عندهم.

وأما الثانى: فهو «مخيرق» فقد كان علماً من أعلامهم وحبراً من أحبارهم، وكان رجلاً ذا مال، أعطاه الله تعالى بسطة فى العلم والمال وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته فى التوراة، ولم يكن ممن يجعلون الاعتقاد عنصرية بل كان ممن يؤمنون بالحق ويعلمون أن الحق أحق أن يتبع، ويقول ابن اسحاق فى يوم أحد قال: يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد ﷺ عليكم لحق، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد ودخل فى جنده وعهد إلى من وراءه من أهله فقال: إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله سبحانه وتعالى، فقاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: مخيرق خير يهود، وقد أسلم فى ساعته الشديدة يوم جاءت قريش تريد أن تغزو المدينة المنورة ثأراً وانتقاماً، فأبى إلا أن يكون مع المؤمنين فاستشهد فى سبيل الله تعالى فكان خيراً فى ذاته وكان خير من فى اليهود.

* * *

الاحتفاء بالفضيلة

كان ميلاد النبي ﷺ حدثاً عظيماً، فقد كان مشرق النور ومولد الفضيلة، وبداية تاريخ حافل بالمآثر زافر بالبطولات والأمجاد، فأصبح ذلك اليوم على الدهر وعلى الأيام غرة الأيام، وسيبقى خالداً في نفوسنا ورمزاً في جباهنا، فهو مطلعُ شمس التغيير الشامل ومبعثُ الوحدة والعزة والكرامة لأقوام كانوا من قبل في ضلال مبين، فأى نعمة أسمى مقاماً من هذه النعمة التي أنعم الله بها على عباده. فمن حق أمته أن تبتهج في ذكره العطرة وحق له أن يحظى بهذا الاهتمام من أمته التي جاء إليها حريصاً على هدايتها ورشادها.

فلم يكن ميلاده العظيم مجرد إعلان لظهور الدين الحق فحسب بل كان حدثاً هائلاً كبيراً له أثره في الوجود، فقد كانت الدنيا قبله تتخبط في فساد وانحلال وتعاسة وشقاء لا تليق بالإنسان بل لا تليق بقطيع من الحيوان.

أحجار تعبد وأصنام تقدس وآلهة تعبد من دون الله، وكان العالم حينئذ كسفينة مضطربة، حائرة تتخبط في بحر لحي تتلاطم أمواجه في دياجير ليل مبسوط الهول تبحث عن منقذ ماهر يقودها إلى مرفأ الأمان وبر السلام، وظلت هكذا ما شاء الله إلى أن انبثق نور الرسالة الخاتمة بميلاد النبي الأكرم، فاستقبلته الإنسانية المنكودة والبشرية الحائرة كما يستقبل المدلج تبشير الصباح والمصفد نسيم الحرية، فأشرقت الأرض بنور الإيمان الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة إلى العلم، ومن الغفلة إلى اليقظة، وانتشلها من أحوال الخرافات والأهوال إلى الحياة الفاضلة في ظل الدين القيم والمنهج المستقيم الذي أزال الغشاوة وبدد الظلام وهدى العقول إلى الصواب.

فلما أراد الله الليل أن ينجلي ولل فجر أن يشرق، فتحت مغاليق الغيب، وبزغ فجر الإسلام، وكان على رسولنا الحبيب أن يواجه الكفر مواجهة حاسمة فأعلن كلمة

الحق على الملأ ومن هنا بدأ الصراع وتحدى محمد ﷺ بمفرده أمة بأسرها، تحدى الوثنيات، وتحدى المزاغم الفاسدة والقيم الباطلة والعقائد الضالة بعقيدته الناصعة الخالصة عقيدة التوحيد.

فمن أسلم لله وجهه وملأ بالتوحيد قلبه، وأخضع لله أمره وذاق حلاوة العقيدة الطاهرة عقيدة التوحيد التي دعا إليها رسولنا محمد ﷺ المثل الأعلى للبشر جميعاً والحريص على سعادتهم في الدنيا والآخرة، كانت له سعادة الدنيا وحسن مقام الآخرة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أى جاءكم محمد ﷺ وهو من جنسكم ونسبكم وعربى مثلكم، شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه؛ لكونه بعضاً منكم، فهو يخاف عليكم العذاب لأن قلبه الكبير جمع الرأفة والرحمة.

أما عظمة أخلاقه وشمائله فليست فى حاجة إلى إيضاح أو تبيان فأخلاقه قرآنية معروفة للناس المسلمين وغير المسلمين على السواء والمتحدث عن أخلاقه يقف عاجزاً، من أين يبدأ؟ وماذا يقول؟ وعن أى الجوانب يتحدث؟ فقد كان رسولنا الأكرم أحسن الناس خلقاً، واصطفاه ربه واجتباها واختاره من البشر كافة ليشرفه بحمل لواء الرسالة وتبليغها للناس جميعاً وهذا فضل الله، فنبينا هذا المثل الأعلى للإنسانية الراشدة الواعية والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

إذا كانت هذه هى أخلاق المصطفى ﷺ وكأنه مخلوق بها ومفطور عليها، وكأنه صبغها بمشيئته كما قال الشاعر:

خلقت مبرراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
فأجمل منك لم ترقط عيني وأفضل منك لم تلد النساء

فما أجمل من أن نتخلق بأخلاق النبی ونحن فی ذكره العطرة.

* * *

التحلى بأخلاق النبي

يقول تبارك وتعالى فى نبينا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فرسول الله ﷺ مجمع صفات الكمال من رب العزة والجلال، حباه الله بها جميعاً يوم كتب عليه نعمة الاصطفاء واجتباؤه خائماً للأنبياء والمرسلين وجعل موقعه فى الأمة الأمية التى أرادها الله خير أمة.

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

روى القاضى عياض بسنده عن ابن أبى عصر العدنى فى مسنده عن على بن أبى طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿مَنْ أَنْفَكُمْ﴾ قال: «نسباً وصهرًا وحسبًا ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح أو كلها نكاح».

كما روى ابن سعد والبخاري وأبو نعيم فى الدلائل بسندهم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: «من نبي إلى نبي حتى أخرجتك نبياً».

وروى مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم» صلى الله عليك وسلم يا رسول الله، هكذا أثبتك الله جل جلاله فى الأرحام الطاهرة حتى ولدت فى بنى عبد المطلب بن هاشم، كما قال فى خطابه لك: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

عينه كانت ترعاك متقلباً فى أصلاب وأرحام طاهرة إلى أن نبأك بالحق واختارك على العالمين.

وعصمك ربك مما كان عليه قومك من جور وحيث وجهل بين الأوثان وأعراف الجاهلية، وأكد ذلك فيما أنزله عليك ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فكنت الرحمة المهداة والنعمة المزجاة.

روى أبو هريرة فيما أخرجه البيهقي في الدلائل إذ يقول ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». وأى هداية تلك التى سعدت بها البشرية إذ أخرجتنا ومن سبقنا ومن يلحقنا من الظلمات إلى النور وصدقك ربك فيما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولدت يتيماً ودرجت تنتقل من كفيل إلى كفيل يحرسك ربك ولقد امتن ربك على أمتك بما أكرمهم من رسالتك فيهم ولست من خيرهم، وإنما أنت من أوسط أنسابهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وصفك ربك بذروة المحامد وكمال الخلال من خوفك علينا وحرصك على هدايتنا لا تريد لنا المعاناة والعنت بل تفضل ربنا وربك فأسبغ عليك من خاص صفاته جل جلاله فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو الذى قال عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها:

«ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال.. لبيك..».

فحرى بنا قوم لا إله إلا الله محمد رسول الله أن نتحلى بأخلاق الرسول الكريم الذى اصطفاه ربه وارتضاه لنا نبياً ورسولاً، كان القرآن خلقه وكان التوحيد عنوان رسالته.

* * *

محبة الرسول ﷺ

محبة النبي ﷺ فرض لازم على كل مسلم ومسلمة وقد ألزمننا الله بها، وجعلها مقدمة على حب النفس والمال والولد، فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فلقد أخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده والناس أجمعين».

والمراد بالحب هنا: الذي يقدم على كل شيء في حياة المسلم، ليس هو الحب الطبيعي التابع لهوى النفس فإن محبة الإنسان لنفسه من حيث الطبع أشد من محبة غيره ومحبته لولده ووالده أشد من محبة غيرهما، وهذا الحب الفطري لا يستطيع الإنسان دفعه ولا يؤاخذ عليه، وإنما الحب لله ولرسوله، والذي يقدم على كل شيء هو ذلك الحب العقلي وقد أوضحه الإمام نور الدين على القاري في شرحه على الشفا بقوله: .. هو إيثار ما يقضى العقل رجحانه وإن كان على خلاف الطبع، ألا ترى إلى المريض يكره الدواء المرّ بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره ويهون تناوله بمقتضى عقله لما علم أو ظن إن إصلاحه فيه.

وكذلك المؤمن إذا علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح دينه ودينه وأخوته وعقباه وتيقن أنه ﷺ أشفق الناس عليه وألطفهم إليه حينئذ يرجع أمره بمقتضى عقله على أمر غيره وهذا أول درجات الإيمان.

ويسترقى الإنسان في ذلك حتى يصير طبعه تابعاً لعقله في حب النبي ﷺ فيعمل على نصر سنته والذب عن شريعته والاعتداء بهديه يفعل ذلك عن حب ورغبة حتى يصير هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ فيمتلئ القلب بمحبته وتشوق النفس

إلى الاقتداء به وهذا المفهوم للحب النبوى يفسر لنا ما جاء عن عمر بن الخطاب فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن زهرة بن معبد عن جده قال:

«كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: «والله أنت يا رسول الله أحب إلى من كل شىء إلا نفسى»، فقال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه».

فقال عمر: فلأنت الآن أحب إلى من نفسى، فقال رسول الله ﷺ: الآن يا عمر (رواه أحمد).

وحب النبى ﷺ له حلاوة يتذوقها القلب المؤمن فيشعر بالرضا والسكينة وتغمره البهجة والسعادة فى سائر أحواله وقد جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

* * *

تدبر مواضع القدوة فى حياة الرسول ﷺ

فى شهر ربيع الأول كان ميلاد النبى ﷺ وكانت هجرته وكانت وفاته.

وتعد هذه الأحداث ذات قيمة عظيمة ليس فى حياة المسلمين وحدهم، ولكن فى سيرة التاريخ البشرى كله، وأعظم ما قدمته لنا هذه الأحداث هى صورة الإنسان الكامل فى ذروة مثاليته التى فاقت تطلعات البشر.

فلم تجتمع قبل سيدنا محمد ﷺ ما اجتمع له من صفات وسجايا من الكمال الإنسانى.

كان سيدنا محمد ﷺ قائداً عسكرياً فذاً ومخططاً حريماً ومقاتلاً شجاعاً وسياسياً خبيراً، كما كان رسولا وداعية هادياً وسراجاً منيراً ومربياً ومعلماً كريماً وعليماً وعابداً متهجداً وخطيباً بليغاً فصيحاً، وزوجاً محبباً رحيماً.

وقد بلغ الذروة السامقة فى كل هذه الجوانب فاكتملت فيه ولم تكتمل لأحد من بعده أو قبله جملة واحدة، بل إن كل صفة وسجية منها لو توافرت لامرئ كما كانت لسيدنا محمد ﷺ لكان آية من آيات الدهر.

إننا لن نجد نموذجاً أسمى من سيدنا محمد ﷺ قدوة للناس كافة فى كل جوانب الحياة الإنسانية ومقياساً للخلق والأدب والرحمة والبصيرة والتضحية للمبادئ السامية.

إن النموذج المحمدى سيظل متجدد العطاء للطامحين إلى مكارم الأخلاق وسنام الأدب العالى والفضل الرفيع سواء للمسلم أو غير المسلم، فالنموذج المحمدى هو صناعة إلهية كما كان موسى عليه السلام الذى قال الله له: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وكما كان غيره من الأنبياء الذين قال الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولقد كان من نعم الله تعالى أن يقدم للبشرية النموذج الإنسانى الذى يرتضيه فكان سيدنا محمد ﷺ الذى قال: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (السنن الكبرى للبيهقى).. بعد أن حدد المؤدب فقال فيما روى عنه ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» (كشف الخفاء للعجلونى).

وفرض الحق سبحانه على كل مسلم أن يستفرغ وسعه لتتبع مواضع القدوة فى حياة النبى الكريم فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وبعض الناس يخطئ فيظن أن اتباع القرآن يكفى كى يكون مسلماً يحظى برضا الله ويهمل السنة الشريفة أو يراها غير ملزمة له ويقول ﷺ: «بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا حللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه» (رواه الترمذى).

ولن يكون المسلم مسلماً صحيح الإسلام حتى يعتقد أن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله، والمسلم الحق يرى السيرة هداية لكل البشر لا مجرد تاريخ.

وعلينا نحن المسلمين أن نتأسى بقول رسول الله ﷺ: «تركتم فىكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً؛ كتاب الله وسنتى». صدق رسول الله ﷺ.

* * *

التوكل والنهى عن التواكل

يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن التوكل على الله تعالى خلق إسلامي أصيل، أرشد إليه ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم، وحث عليه وتخلق به رسول الله ﷺ وبحسبنا في هذا الحديث أن نقف سويًا على معنى التوكل، وما أعده الله للمتوكلين، وإلى أى مدى يتوقف تقدم عجلة الحياة على التوكل، كما نشير إشارة وجيزة إلى التواكل الذى هو ضد التوكل ونقيضه، فبضدها تتميز الأشياء.

فالتوكل كما يقول العارفون بالله، والعالمون بهداياته: هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى فى استجلاب الخيرات، ودفع المضرات من أمور الدنيا والآخرة، مع الأخذ بالأسباب الموصلة لتحقيق ذلك عمليًا، أما التواكل فهو العجز والكسل والقعود عن طلب الأشياء باتخاذ أسبابها التى ربطها الله بها.

فما على الإنسان إذا عقد العزم على المضى فى أمر من الأمور، أو شأن من الشئون، ما عليه إلا أن يعد للأمر عدته، باتخاذ الأسباب الملائمة مع التوكل على بارئ الأرض والسمااء الذى عليه وحده يتوكل المتوكلون، وبه يستعين المؤمنون المتقون، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ومن الأمور التى ينبغى ألا تغيب عن أذهان العقلاء، أن التوكل على الله مصدر من مصادر القوة، وفى الحديث الشريف: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله» (إتحاف السادة المتقين للزبيدي)، ويقول أحد الصالحين: حسبك من التوصل إليه، أن يعلم من قلبك حسن التوكل عليه.

يقول رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما أحل، ودعوا ما

حرّم» (سنن ابن ماجة)، ويقول أحد الحكماء: ابذر الحب، وارح التمر من الرب، كما أرشد النبي ﷺ ذلك السائل الذى جاء على ناقته فوقف أمام باب مسجد النبي، وقال: يا رسول الله أتترك ناقتى وأتوكل؟ أم أعقلها وأتوكل؟ فقال له النبي الكريم: «اعقلها وتوكل» (جمع الجوامع للسيوطى)، أى اعقلها أخذاً بالأسباب، ثم توكل على الله مفوضاً له أمرك وأمرها، فهو المتصرف فى كل شىء، وهو المؤمل لكل خير.

ولقد ورد أن إبراهيم بن أدهم أحد زهاد المسلمين كان له صديق تاجر يدعى "شفيق البلخى"، وذات يوم ودع شفيق صديقه ابن أدهم لسفر فى تجارة له، فودعه صديقه ودعى له بخير، ولكن بعد فترة قصيرة وجد إبراهيم صديقه شفيقاً فى المسجد، فسأله عن حاله، فأخبره بأنه عاد ولم يكمل السفر ولا التجارة، فسأله عن سبب ذلك، فأخبره بأنه رأى فى طريق سفره طائراً كسيحاً فى مكان مهجور، ورأى طائراً آخر صحيحاً يأتيه بالطعام والشراب، فقال فى نفسه: إذا كان الله قد ضمن لهذا الطائر الكسيح رزقه على هذا النحو، فلماذا أعمل وأجهد نفسى؟! إننى سأرجع ولن يحرمنى الله من الرزق كما رزق هذا الطائر الضعيف، فنظر إليه إبراهيم بن أدهم وقال له: لماذا ترضى لنفسك يا أخى أن تكون الطائر الكسيح الذى يعوله غيره، ولماذا لا تكون الطائر الصحيح الذى يعول غيره، فتنبه شفيق، وقال لإبراهيم: جزاك الله عنى خيراً يا أخى، لقد غاب عن ذهنى هذا الأمر، ثم إنه قام يواصل رحلته وعمله فى الحياة.

هكذا يكون فهم الأمور على وجهها الصحيح، وأنه على العاقل البصير أن يكون مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، يسعى فى مناكب الأرض بجهد وإخلاص، لكى يحصل من الأرزاق ما يحفظ عليه حياته، ويدفع به غائلة الحاجة والفاقة عمن يعول، فذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون.

فالتوكل على الله فى السعى الدائم خير من الكسل والعجز والخمول، وكما يقول الرسول الكريم: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول» (رواه أحمد).

* * *

العز الذي لا ذل بعده

إننا بحاجة ماسة إلى التعرف الحقيقي على كل ما من شأنه أن يصلح نفوسنا التي بين جنوننا، ولا شيء أنفع في تحقيق هذا الهدف، وذلك الغرض من الارتباط الكامل بالله رب العالمين، والتوجه إليه وحده في كل حال، وعلى أي حال، وفي الحديث السابق ما يدل على أن الله سبحانه وتعالى يحثنا على ذلك، (عبدى اطلبني تجدني)، ولكن كيف نطلب الله تعالى؟

نطلبه بطاعته، والبعد عن معصيته، وبكثرة ذكره وشكره والثناء الحسن عليه، فمن تحقق له ذلك، فقد تحقق له كل شيء، تحقق له كل شيء في دينه، تحقق له كل شيء في دنياه، ومن أخفق في تحقيق هذا الغرض، فقد فاته كل شيء، وما أبصدق ما يقول القائل في مناجاة مولاه: إلهي، ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا، وخسر من بغى عنك حولا.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «في القلب شعث لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهب به إلا السرور بمعرفة الله، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى يوم القيامة، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة أبداً.

إنه منهج تربوي ممتاز، من تمسك به فاز وسعد، ومن أعرض عنه خاب وخسر، فما أسعد الإنسان حين يلقي بنفسه، وبكل مطالبه، وبكل أحواله ومشاغله، حينما يلقي بذلك كله على أعتاب رب الأرباب، ومهيئ الأسباب، مسلما له في كل شيء متوكلا عليه وحده في كل أمر، ضارعاً إليه في كل أمر مهم، فما يكون من الرب الكريم إلا أن يقبل عليه، فيزيل عنه كل وحشة وهم وغم، ويكون أقرب إليه بالفضل

والنصر والتوفيق، فيجبر كسره، ويقلل عثاره، ويثبت به بالقول الثابت، ويدفع عنه كيد الكائدين، ومكر الماكرين، فيدخل دائرة العز الذي لا ذل بعده، والغنى الذي لا فقر بعده، والستر الذي لا عرى بعده، فيصدق عليه قول الرسول الكريم: «العز في طاعة الله».

فيا كل المتعبين، ويا كل المكدورين، ويا كل من تلهبهم سياط الدنيا، وتستعبدهم مادياتها، ألم يأن لكم أن تراجعوا حساباتكم، وتفيثوا إلى واحة الأمان، بظلها الوارف، وعطرها الفواح، وخيرها الكثير الوافر!!

ألم يأن لكم أن تجددوا إيمانكم، وأن يزن كل منا نفسه بموازين الحق، بموازين الأخلاق الإسلامية الصحيحة، وأن يعلم كل منا أن الدنيا ساعة، فيستغلها في الطاعة، وكما يقول القائل: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طماعة فعلمها القناعة!!

ألا أدلك على أبواب الخير، التي إن ولجتها أوصلتك إلى رضوان الله!!
أخرج ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح والتحميد والتكبير، والتهليل، والأمر بالمودة والنهي عن المنكر، وتُسمع الأصم، وتهدى الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان والمستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك».

ويقول فيما أخرجه الطبراني: «إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس، يفرع إليهم الناس في حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عذاب الله».
فاللهم وفقنا لما تحبه وترضاه واجعلنا هادين مهتدين.

* * *

التفقه فى الدين

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «مَنْ يُرد الله به خيراً يُفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى؛ ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم مَنْ خالفهم حتى يأتى أمر الله» (رواه البخارى).

من الأخلاق الإسلامية الأصيلة، التى دعى إليها الإسلام الحنيف موضوع التفقه فى الدين، والتفقه فى الدين يعنى فهم أصوله وفروعه والعلم بها من خلال النصوص الشرعية الدالة عليها، وقد توفر لهذه المسائل جمع غفير من علماء اللغة الذين تركوا تراثاً فقهياً عظيماً، فى شتى مجالات الحياة؛ ذلك لأن رسول الله ﷺ ما فارق الدنيا حتى ترك الأمة على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ويتسع هذا المعنى ليشمل العلم والفهم الدقيق لكل أمر من الأمور، ولكل علم من العلوم، فكل عالم بشىء فهو فقيه، ولقد دعا النبى ﷺ لسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فقال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل» (رواه البخارى)، ويقول الله تعالى دعاء كليمه موسى عليه السلام حينما أرسله إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

كما يراد بالفقه أيضاً معانى الإيمان، وتحقيقه فى نفس العبد، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى، قال: من لم يُقنَّط الناس من رحمة الله، ولم يُؤمّنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه» (إتحاف السادة المتقين للزبيدي).

ولقد كان اسم الفقه فى الصدر الأول يطلق ويراد به علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلوب، ويدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، كما نعى الله على الكفار قسوة قلوبهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد بين الرسول ﷺ أن فقه الدين والعمل به هو أقصى ما يطمح إليه العبد المؤمن، فذلك هو الكيس كل الكيس، ففي الحديث الشريف: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» (رواه أحمد)، أي أن الكيس من حاسب نفسه وأخضعها للعمل الصالح الطيب الذي يحقق لها النجاة يوم العرض على جبار السماوات والأرض.

وقد بين النبي ﷺ أيضاً أن فقه الدين وفهم مسائله وقضاياه إنما هو بمثابة العطاء من الله تعالى، فقد بين الرسول ﷺ شريعة ربه بأتم بيان، ولم يخص بعض الناس منها بشيء معين، ولكن الله هو الذي يعطى كل واحد من الاستعداد ما به الفهم، ويمنح من المواهب ما به الإدراك، فيلهم كلا ما يليق باستعداده، ويتلاءم مع قدراته الذهنية، ويقول رسول الله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (رواه البخاري).

وكأننا برسول الله ﷺ وهو يحثنا على فقه الدين والعمل بمقتضاه، من خلال بيانه تلك الحقيقة الناصعة البياض، ألا وهي أن طوق نجاة هذه الأمة هو الالتزام بمقررات الشرع الحنيف، والعمل الجاد على ابتغاء مرضاة الله، وأنها ما تزال منصورة على أعدائها طالما ألزمت نفسها منهج الاستقامة، وأخذ الأمور مأخذ الجد، وهذا معنى طيب يجب العمل على تعظيمه في النفوس، وتعظيم العمل به.

ومما يقوى هذا المعنى، ما طلبه سيدنا معاوية بن أبي سفيان من السيدة عائشة رضي الله عنها فقد قال لها: أوصيني ولا تكثري على، فقالت له: سمعت من رسول الله ﷺ أنه قال: «من التمس رضا الله، بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس» (رواه الترمذي).

* * *

بر الوالدين

يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

هذا البيان القرآني الكريم يوضح لنا هذا الإرشاد الإلهي الحكيم، فإذا كان المولى عز وجل هو المقصود بالعبادة الخالصة، فإن الوالدين هما أحق بالإحسان، وهما أولى الناس بالبر وحسن الصحبة، وما ذلك إلا لما لهما من كبير الفضل بعد الله تعالى في الإحسان إلى الأبناء، كدأً وكدحاً في سبيل إسعادهم، فكل منهما يتفاني في توفير الخير الذي يقدمه لكل منهم، حتى ينال كل واحد منهم حظاً سعيداً في الحياة، وبحيا حياة طيبة، فيفرحان لفرحه، ويتألمان لألمه، ولقد تعددت النصوص القرآنية التي تحض على البر بالوالدين والإحسان إليهما، من نحو قول الله تعالى: ﴿وَعَبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، ويتمثل ذلك في طاعتهما في غير معصية، والقيام لهما بالسمع والطاعة، وتوقيرهما، والإحسان إليهما، في كل حال وعلى أي حال، وبخاصة حال الكبر، وإذا نزل بهما أو بأحدهما من حالات الضعف ما يستوجب العون والمساعدة، فقد قال النبي ﷺ في حديثه الشريف: «أنت ومالك لأبيك» (رواه أبو داود).

ولقد بينت الشريعة الغراء أن الإحسان إلى الوالدين وحسن عشرتهما يعدل الجهاد في سبيل الله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يبأيه على الهجرة والجهاد، فلما علم النبي ﷺ أن لهذا الرجل والدين على قيد الحياة، ما كان منه إلا أن أمره بالرجوع إلى والديه، وحسن معاشرتهما، حيث قال له: «فيهما فجاهد» (رواه البخاري).

ولما كانت الأم قد تحملت من المشاق الشيء الكثير، من نحو آلام الحمل، وطلقات الوضع، وما يتلو ذلك من الرضاع وحسن التربية، والقيام بالواجب حال الصغر، والاهتمام بأمر وليدها في كل طور من أطوار حياته، فقد سعدت به رضيعاً،

وأنست به شاباً، ولم تتحمل أى أذى يلحقه، فإذا ألم به مكروه لم يهدأ لها جفن ولم ينقطع لها دمع، وباتت ليلها فى هلع وولع، تضرع إلى الله، وتتوسل إليه أن يستجيب دعائها، وينجى برحمته وليدها.

من أجل هذا وغيره فقد اختصها رسول الله ﷺ بمزيد الاهتمام، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك» (البخارى ومسلم).

فنحن نرى من هذا الحديث أن النبي ﷺ قد أوصى بالأم ثلاث مرات، وأوصى بالآب مرة واحدة، وليس فى هذا تقليل لشأن الأب، ولا افتيات على حقه فى تربية أولاده، وإنما فيه مراعاة الجانب الأضعف فى هذه العلاقة، يقول الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وعلى الجملة فإنه يجب على الإنسان أن يلتزم بمنهج القرآن فى حسن صحبة الوالدين، وهو ما ورد فى قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفَ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وليعلم كل إنسان أنه كما يدين يدان، والجزاء عند الله من جنس العمل، وأن الله يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وأن الإسلام بإرساء هذه المبادئ، وبيان هذه المعالم، إنما يرسم حدود الحياة، الحرة الكريمة، التى يتضح فيها تواصل عطاء الخير بين الأجيال، فأبناء اليوم هم آباء المستقبل، فليختر كل امرئ المكيال الذى يجب أن يكال له به، وصدق الله إذ يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فوفقنا اللهم لما تحبه من العمل وترضاه، إنك رب ذلك والقادر عليه.

* * *

مجاهدة النفس

قبل أن يحمل المسلم السلاح لقتال أعداء الله وأعداء المسلمين عليه أن يجاهد أولاً نفسه التي بين جنبيه، عليه أن يكون في جهاد دائم مع نوازع الهوى، ودوافع الإثم حتى يقوى على مقاومة قوى الشر في الحياة، ومن يقدرُ على الاستعلاء على هواه كان أقدر على الانتصار على الأعداء، والإنسان في صراع شاق بين دوافع الروح التي تدعو إلى الخير، وبين وساوس الشيطان الموجهة إلى الشرور، روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن للشيطان لمةً بآدم، وللملك لمةً فأما لمةُ الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمةُ الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]» (رواه الترمذی).

وإذا انتصر الإنسان في جهاده مع نفسه استرخص الحياة وقدمها فداءً لعقيدته، وعاش حياته عزيزاً حراً يهابه الأعداء، ويحترمه الأصدقاء والمسلمون الأولون رضوان الله عليهم أجمعين، صانوا عقيدتهم، ونشروا مبادئهم، وحفظوا مقدساتهم بقوة إيمانهم، وبجهاد أعدائهم امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ [الحج: ٧٧، ٧٨].

ولقد ذم رسول الله الذين يتعلقون بزينة الحياة الدنيا، ويقعدون عن شرف الجهاد فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، وعبد القطيفة، إن أعطى رضى، وإن لم يُعطِ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبدٍ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماء، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقاة كان

فى الساقّة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفع له» (رواه البخارى).

وجهاد النفس يكون بمخالفتها وعدم اتباعها لما تهواه، وقد ذم الله اليهود على اتباعهم لأهوائهم. قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فعلى المسلم أن يجاهد نفسه وليعلم أنها أعدى أعدائه، وأنها بطبعها ميالة إلى الشر، فرارة من الخير أمانة بالسوء قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، تحب الدعة والخلود إلى الراحة، وترغب فى البطالة، وتنحرف مع الهوى، تستهويها الشهوات العاجلة، وإن كان فيها حتفها وشقاؤها فعلى المسلم أن يخالفها، ويصمم على مكافحة رعوناتها، ومناجزة شهواتها، فإذا أحب الراحة أتعبها، وإذا رغبت فى الشهوة حرّمها، وإذا قصرت فى طاعة أو خير عاقبها ولاّمها، ثم ألزمها بفعل ما قصرت فيه، وبقضاء ما فوتته أو تركته بأخذها بهذا التأديب حتى تطمئن وتطهر وتطيب وتلك غاية المجاهدة للنفس، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمسلم إذ يجاهد نفسه فى ذات الله لتطيب وتطهر وتزكو وتطمئن، وتصبح أهلاً لكرامة الله تعالى ورضاه يعلم أن هذا هو درب الصالحين وسبيل المؤمنين الصادقين فيسلكه مقتدياً بهم ويسير معهم مقتفياً آثارهم فرسول الله ﷺ قام حتى تفتطرت قدماه الشريفتان وسئل ﷺ فى ذلك فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» (رواه البخارى)، وكان على رضى الله ﷺ يقول: رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى، وما هم مرضى، وذلك من آثار مجاهدة النفس، والرسول ﷺ يقول: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» (إتحاف السادة المتقين للزبيدي).

* * *

الصبر على طاعة الله

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الصبرُ على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحبُّ إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة أبغضُ إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية. أ. هـ. (مدارج السالكين ١٥٧/٢).

لقد أمر الله سبحانه بالصبر على طاعته، وذلك في قوله جل شأنه خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر «اصطبر» مكان الصيغة المعتادة «اصبر»؛ لأن الافتعال يدل على المبالغة في الفعل، فزيادة المبنى تدل في العادة على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها. إن الصبر على الطاعة صبر على الشدائد، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببها جميعاً كالحج والجهاد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الحالة الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء، ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك يحتاج إلى الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس، وقد نبه صلوات الله وسلامه عليه إذ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (رواه البخاري). وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، يعنى لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده مخلصين له الطاعة.

الحالة الثانية: حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل

عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر، قال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [٥٨] الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿[العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، أى صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه، والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كل ما يبطل عمله، ويُحِبِّطُ أثره كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهم جميعاً، وقد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

قال القرطبي: اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان، فقال ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض.

وقيل العدل: الفرض، والإحسان: النافلة. وقال على بن أبى طالب: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل (أ. هـ / ١٦٦).

ولا شك أن كل ما ذكر يحتاج إلى صبر، ولقد صبر إسماعيل عليه السلام على طاعة ربه حينما قال لأبيه إبراهيم عليهما السلام حين أخبره أنه رأى في المنام أنه يذبحه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

* * *

المسارعة إلى الزواج

لقد شرع الله الزواج لحكم سامية، وغايات نبيلة وفوائد جلية، وأمر بتيسير أسبابه؛ لأنه هو الطريق السليم للتناسل، وعمران الأرض بالذرية الصالحة، ولم يشأ الله تبارك وتعالى أن يترك الإنسان كغيره من المخلوقات، فيدع غرائزه تنطلق دون وعى ويترك الاتصال بين الذكر والأنثى فوضى لا ضابط له كما هو الحال عند الحيوان، بل وضع النظام الملائم الذى يحفظ للإنسان كرامته، ويصون له شرفه فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالاً نظيفاً طاهراً قائماً على أساس التراضى والتفاهم، وبهذا وضع للغريزة طريقها المأمون وحمل النسل من الضياع، وصان المرأة أن تكون دُميمة بين أيدي العابثين أو كلاً مباحاً لكل راع.

الترغيب فى الزواج:

لقد رغب الإسلام فى الزواج بصور متعددة للترغيب، فتارة يذكر أنه من سنن الأنبياء، وهدى المرسلين وأنهم القادة الذين يجب علينا أن نقتدى بهداهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وتارة يذكره فى معرض الامتنان، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]، وأحياناً يتحدث عن كونه آية من آيات الله قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقد يتردد المرء فى قبول الزواج فيحجم عنه خوفاً من الاضطلاع بتكاليفه، وهروباً من احتمال أعبائه فيلفت الإسلام نظره إلى أن الله سيجعل الزواج سبيلاً إلى الغنى، وأنه سيجعل عنه هذه الأعباء ويمده بالقوة التى تجعله قادراً على التغلب على أسباب الفقر، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وفى حديث الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف».

إن المرأة خير كنز يضاف إلى رصيد الرجل، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة».

وقد يُخيل للإنسان فى لحظة من لحظات يقظته الروحية أن يتبتّل وينقطع عن كل شأن من شئون الدنيا فيقوم الليل ويصوم النهار ويعتزل النساء ويسير فى طريق الرهبانية المنافية لطبيعة الإنسان فيعلمه الإسلام أن ذلك منافٍ لفطرته ومغايِرٌ لدينه، وأن سيد الأنبياء - وهو أخشى الناس لله وأتقاهم له - كان يصوم ويُفطر ويقوم وينام ويتزوج النساء، وأن من حاول الخروج عن هديه فليس له شرف الانتساب إليه، روى البخارى ومسلم عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

* * *

نصرة المظلوم

إن عقاب الظالمين فى الدنيا تربية عاجلة للوقوف أمام استشرأء شهوة الظلم عند الظالمين؛ لأن الحق سبحانه لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحترقاً للظلم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، أى قبل الآخرة لهم عذاب، ولذلك حين يرى الناسُ مصرعَ الظالم، أو يرون الخيبة التى حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة، فهؤلاء الظالمون لهم عذاب أقرب من عذاب الآخرة؛ لأنه لو أجلت المسألة كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة.

ونصرة المظلوم تتحقق بأن ينزل كل ممكن فى الأرض العقاب بكل من يعرِد فى الكون لتستقيم الأمور، ولقد أقام ذو القرنين العدل بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

إن إنزال العقاب بالمعتدى خضوع لمنهج الله وشفاء للمعتدى عليه ونصرة له، وفى رؤية هذا العقاب من قبل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدى ينال عقابا، ولذلك شرع الحق سبحانه العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وحينما يأخذ الناس الظالم بالعقوبة فهم يتعبونه، لكنهم يريحون كل المظلومين وينصرونهم، وهذه هى العدالة فعلا، ومن خطأ التقنيات الوضعية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفاذ الحقوق فى التقاضى، فقد تحدث الجريمة اليوم ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع

العقوبة يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

إن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضرّبوا على يده فإن الله يعمّهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادى فى ظلمه وطغيانه، ويُعرّض فى الآخرين، فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله. ولذلك نجد أن أبا بكر رضي الله عنه يبين لنا ذلك فيقول: «أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله - عز وجل - أن يعمّهم بعقابه» (أخرجه أحمد وابن ماجة).، ويقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسي: «وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره» (أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١٠٦٥٢).

إن ما يجعل الناس تنهون فى التعاون على البر ويجترئون على الإثم، أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعاً، ولا نصرة للمظلوم، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفرادهم من الإثم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجواً ونجواً جميعاً» (أخرجه أحمد والبخارى).

إن المظلوم الذى يكون فى مكنته أن يرد الظالم وسكت عن ذلك استحق أن يشمل العقاب الذى يقع على الظالم أيضاً، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الظلم والظالمين ونصرة المظلومين أنزل الله بها العقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

* * *

ترك المرء ما لا يعنيه

إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه من قول وفعل والاقتصار على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، وأن تتعلق عنايته بما يعنيه ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشئ، يقال عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (حديث حسن، رواه الترمذی)، هذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، فإن جماع آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث: قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (رواه البخاری)، وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقوله ﷺ للذي اختصر له في الوصية «لا تغضب» (رواه البخاری)، وقوله ﷺ: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (إتحاف السادة المتقين للزبيدي)، ومعنى قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» يعنى أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال ومعنى (يعنيه) أن تتعلق عنايته به ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشئ يقال: عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس بل بحكم الشرع والإسلام. ولهذا جعله الرسول ﷺ من حسن الإسلام، فإذا حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال فإن الإسلام يقتضى فعل الواجبات وإن الإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات، كما قال النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (رواه البخاری)، وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعنيه من المحرمات أو المنهيات والمكروهات، وفضول المباحات التى لا يحتاج إليها فإن هذا كله لا يعنى المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.

فَمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى اسْتِحْضَارِ قُرْبِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ بِقَلْبِهِ، أَوْ عَلَى اسْتِحْضَارِ قُرْبِ اللَّهِ مِنْهُ وَإِطْلَاعِهِ عَلَيْهِ، فَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ وَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتْرَكَ كُلَّ مَا لَا يَعْنِيهِ فِي الْإِسْلَامِ وَيَشْتَغِلَ بِمَا يَعْنِيهِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَقَامَيْنِ الْإِسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ وَتَرْكُ كُلِّ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ كَمَا وَصَّى ﷺ رَجُلَانِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ كَمَا يَسْتَحْيِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ صَالِحِي عَشِيرَتِهِ لَا يَفَارِقُهُ.

وَأَكْثَرُ مَا يَرَادُ بِتَرْكِ مَا لَا يَعْنِي حِفْظُ اللِّسَانِ مِنْ لُغُو الْكَلَامِ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ مِنْ حَسَنِ إِسْلَامٍ الْمَرْءُ قَلَّةُ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ» (رواه أحمد)، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي مَطَاعٌ فِي قَوْمِي فَمَا أَمْرُهُمْ؟ قَالَ لَهُ: «مَرَهُمْ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ وَقَلَّةِ الْكَلَامِ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِمْ» (إتحاف السادة المتقين للزبيدي)، وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حَبَانَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِي صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ، سَاعَةٌ يَنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صَنْعِ اللَّهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يَكُونَ ضَاعِعًا إِلَّا لثَلَاثٍ: تَزُودٌ لِمَعَادٍ، أَوْ حُرْفَةٌ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٌ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَبَابِهِ، حَافِظًا لَلْسَانِهِ وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ».

* * *

الرحمة فى الحرب

من أدب الحرب فى الإسلام أنه يوصى القائد بجيوشه خيراً كما حرم الإسلام قتل الصبيان والمرضى والشيوخ والنساء، ونهى عن هدم البيوت والمُثلة وقتل الحيوان، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ومن الاعتداء محاربة من لا يحارب مثل أبناء المحاربين ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم وعبادهم المتفرغين للعبادة وعلمائهم المتفرغين للعلم، وكيف لا يكون ذلك أليس هو رسول الرحمة؟ فالرحمة مشروعة فى الإسلام فى جميع الحالات فإن النبى ﷺ حين بعث معاذاً إلى اليمن أوصاه وعهد إليه، ثم قال له: «يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» (مختصر سيرة ابن هشام ص ٢٩٢)، وروى سليمان بن بُريدة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» (فقه السنة ٣/ ٦٠)، وعن ابن عمر رضى الله عنهما «أن النبى ﷺ رأى امرأة مقتولة فى بعض مغازيه، فأنكر قتل النساء والصبيان» (متفق عليه)، وروى أن رسول الله ﷺ مر بعد أن انتصر المسلمون فى غزوة حنين بامرأة مقتولة والناس مزدحمون عليها، فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد فقال: «أذكر خالدًا فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيلاً» (سيرة ابن هشام ص ٥).

فلا يجوز أن تتعدى الحرب إلى المدنيين الذين لا يشتركون فيها من شيخ ونساء وعجزة وعبادٍ منقطعين للعبادة، وعلماء منقطعين للعلم إلا إذا قاتلوا أو كان لهم فى تدبير الحرب رأى ومكيدة؛ لأن القتال لمن يقاتلنا (السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٥١).

لقد التزم الصحابة بمبدأ الرسول ﷺ الرحمة فى الحرب، فلقد وصى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسامة حين بعثه إلى الشام فقال: (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذهبوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع (يريد الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)، وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الأجناد: (أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استونا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا تنتصر عليهم بفضلنا لم تغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظه من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا كما سُلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا، اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم) (فقه السنة ٤٨/٣).

هذه رحمة الإسلام فى الحرب لا يضارعها أى قانون دولى كما أنها تسمو على القانون الدولى بأنها أحكام دينية لها من الجلال والطاعة النفسية ما للدين وأحكامه، فليسمع العالم كله رحمة الإنسان فى الحرب وليتعلموا حقوق الإنسان من الإسلام.

* * *

الأخذ بالحلال والنفور من الحرام

مما لا ريب فيه أن الله سبحانه وتعالى يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر وعندما أحل الله لهم ما أحل وحرّم عليهم ما حرّم فلا ريب أن هذا مما يعود على الناس بالخير من أجل ذلك اقترن ما أحل الله بالطيب وما حرّم بالخبائث يقول الله عز وجل: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، من أجل ذلك دعا الله سبحانه وتعالى عباده أن يأكلوا من رزقه ووصفه بكونه حلالاً طيباً فيقول عز وجل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وكثيراً ما نجد الصفات الطيبة للطيبات من الرزق التي أحلها الله سبحانه فنجد الله سبحانه وتعالى يصف اللبن وهو حلال طيب فيقول سبحانه: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، ويصف الله سبحانه وتعالى شراب العسل ويمتق على عباده بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وما يأخذه الرجل من زوجته بطيب نفس والذي قد يكون جزءاً من الصداق أو كله يقول سبحانه: ﴿إِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

الخبائث الضارة بالإنسان في بدنه وفي عقله:

وفي مقابل الطيبات من الرزق الخبائث التي حرّمها الله سبحانه وتعالى ولا ريب أن كل ما حرّمه الله عز وجل فهو خبيث يهدد بنيان الإنسان الذي هو من خلق الله عز وجل وجعله في أحسن تقويم، والمؤمن حقاً الذي وجد حلاوة الإيمان في قلبه لا ريب أنه يسعد كثيراً بالمطعومات والمشروبات التي أحلها الله سبحانه وتعالى حيث يجد فيها الخير ويتمتع بها وكلما تاقت نفسه إلى طعام أو شراب اتجه إلى الطيبات من الرزق وهو في الوقت نفسه يشعر بالازدراء والنفور من الخبائث التي حرّمها الله

سبحانه وتعالى، وهو على يقين بأن فى الحلال ما يغنى عن الحرام وإذا مسه الشيطان بنزغاته ووساوسه ليزين له ما حرم الله سبحانه وتعالى من الخبائث فإنه يتذكر ويعتبر، والمجاهد من جاهد نفسه حتى يصل إلى التمتع بالطيبات من الرزق والنفور والازدراء من الخبائث.

فى الحلال من الطيبات ما يغنى تماماً عن الخبائث:

إن النفوس الطيبة التى عرفت ربها تدرك تماماً أن فى الحلال ما يغنى عن الحرام والله سبحانه وتعالى قد شرع لعباده ما شرع وما جعل عليهم حرجاً فيما أحل وفيما حرم يقول سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، أما هؤلاء الذين غفلوا عن ذكر الله فإن الشيطان حينئذ يسلط عليهم جنوده ليزينوا لهم الخبائث التى تؤدى بهم إلى خسران الدنيا والآخرة، ويصدق فيهم قول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، إنهم فى غفلة عن فضل الله وسعة رحمته فيما أحل الله من الطيبات وفيما ما يغنى عن الحرام فكما يقول أهل العلم إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم الربا فقد أحل التجارة الرباحة، وإذا كان الله عز وجل قد حرم القمار فقد أحل أكل المال بالمسابقة النافعة فى الدين بالخيال والإبل، وإذا كان الله عز وجل قد حرم الحرير فقد أحل لعباده الملابس الفاخرة على أن يكون بعيداً عن الزهو والخيلاء حيث ورد فى الأثر كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان صرف أو مخيلة وإذا كان الله عز وجل قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فقد أحل ما طاب للمسلم من النساء مثنى وثلاث ورباع وعليه فالمؤمن حقاً هو الذى يفرح ويتمتع بالطيبات وينفر من الخبائث.

* * *

الخدمة العامة كطريق إلى الجنة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أى الناس أحبُّ إلى الله تعالى؟ فقال: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ فى حاجة أحبُّ من أن أعتكف فى هذا المسجد شهراً، ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام» (الأصبهاني - ترغيب وترهيب).

عزيزى القارئ هيا بنا نخلق معاً فى سماوات هذه التوجيهات النبوية السامية، لنرى كيف ترتبط النفوس المؤمنة بالله، فيكون صاحبها من أحب خلق الله إلى الله، وكيف تمتلئ القلوب المخلصة برضا الله يوم القيامة، وكيف تثبت أقدام الصالحين يوم القيامة، يوم تزل الأقدام؟

يمكننا أن نرى ذلك كله وغيره معه، من خلال تلك الإجابة الوافية التى قدمها النبي ﷺ لذلك الرجل الذى يستفسر عن أحب الناس إلى الله تعالى، فأحب الناس إلى الله تعالى هو أنفعهم لعباد الله، ومصادر نفع الناس كثيرة، ومن أبرز ميادينها الخدمة العامة، والعمل الصالح للآخرين فى حيادية وتجرد من نحو قضاء الحاجات، المادية والمعنوية، وكذلك إدخال السرور على نفس المسلم، بأى صورة من الصور، أو بأى شكل من الأشكال، فإن استطعت أن تفرج عن أخيك المسلم كربة من كرب الدنيا، فإن الله يفرج عنك بها كربة من كرب يوم القيامة، وإن استطعت أن تخلصه من ورطة وشدة ألتمت به، فإن الله يخلصك بها من ورطات يوم القيامة وشدائده، كقضاء دين لزمه، أو دفع غائلة الجوع والمسغبة عنه عن طريق إطعامه، وكذلك الحال عند ستر عورته بكسوته، فهذه الأعمال هى من أحب الأعمال إلى الله تعالى، أو إن شئنا الدقة فإننا نقول: إنها أحب الأعمال إلى الله على الإطلاق؛ ذلك لأن الذى

يتحرك فى الحياة الدنيا على هذا النحو الكريم، ما من شك فى أن الله سبحانه وتعالى يوفقه لأداء ما افترضه عليه من العبادات الأخرى، فيزداد بذلك كله قريباً من رب العالمين.

ولك أن تعجب معى من روعة البيان النبوى، والهدى المحمدى، الذى يستنهض فيه رسول الله ﷺ الهمم نحو المشى فى قضاء حوائج الناس، فيعظم على ذلك الأجر الأخرى، فالمشى فى قضاء حوائج الإخوان يفضل ثواب اعتكاف المعتكف شهراً كاملاً فى مسجد رسول الله ﷺ، وحتى نكون على علم بحقيقة هذا الثواب، فقد أخبرنا النبى الكريم أن من اعتكف يوماً فى سبيل الله باعد الله بينه وبين النار سبعة خنادق، بعد ما بين الخندق والآخر بعد ما بين السماء والأرض، وما هذا إلا ليهون كل مشقة، ويرخص كل غال فى سبيل تذليل هذه العقبات، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، فإن وفق الله ذلك الساعى فى قضاء حاجة أخيه حتى قضاها له، ثبت الله قدميه يوم القيامة يوم تزل الأقدام.

كما يوضح النبى ﷺ حقيقة كظم الغيظ لأولئك القادرين على إمضائه، وإيقاع النكال بمن غاظهم، وبين عظيم الثواب عند الله، فكما رضى هذا الكاظم لغيظه بالامتثال لأمر الله إذ يقول: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فإن الله عز وجل يكافئه على ذلك ويجزيه الجزاء الحق فيملاً قلبه برضاء خالقه، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط، ومما لا شك فيه أن أى ثواب ومهما عظم، فإنه لا يقاس برضوان الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وعلى هذا النهج الكريم، والمنهج القويم، تؤسس حضارة الإسلام على مكارم الأخلاق، وينهض بنيانها على أعمدة الفضيلة التى أعلى رسول الله ﷺ صرحها فى الأرواح والنفوس، قبل أن تجسد فى ماديات الحياة، ومن هنا وجدت التناغم والتكامل والانسجام، وسيبقى هذا البناء شامخاً ما سرت فيه أخلاق الإسلام، فوفقنا اللهم للأخذ بهذه الأسباب، حتى نزداد منك قريباً، ولك حباً يا كريم.

* * *

العمل الصالح كأساس الحياة الكريمة

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

بهذا البيان القرآنى المحكم يذكرنا الله تبارك وتعالى بأن الحياة الكريمة الطيبة هى التى تنشأ فى ظل العمل الصالح، الذى يعتمد على ركيزة الإيمان الصادق بالله رب العالمين، يستوى فى ذلك الذكر والأنثى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيوفيههم الله أجورهم كاملة غير منقوصة.

ومن أبرز ملامح الحياة الحرة الكريمة الطيبة، ما يذكرنا به فى هذه الآية الكريمة من الاعتماد على العمل الصالح، الذى يتخذ من الإيمان الصادق بالله رب العالمين ركيزة قوية له، حتى يسعد الناس فى ظل ذلك بالخير العظيم والثواب الكريم، يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَتَّخِلَنَّ لَهُمُ الْأَرْضُ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فتلك هى الحياة التى ترف عليها أعلام الأمن والسكينة، فلا يلبث الناس فى ظلها أن يحظوا بالتمكين فى الأرض، كما يمكن الله لهم دينهم الإسلامى الحنيف، المرضى عنه من قبل المولى عز وجل، مصداقا لقول ربنا الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالعمل الصالح شرف أى شرف، وحينما نطالع كتاب ربنا تبارك وتعالى، فإننا نجد أنه يقص علينا من أخبار المرسلين، ما يرشدنا إلى بعض الأعمال التى كانوا يقومون بها فى حياتهم الدنيا، فهذا نوح عليه السلام وقد أتقن النجاة: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٢٧]، كما كان داود عليه السلام يعمل حداداً: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ

﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿سبأ: ١٠، ١١﴾، وموسى ﷺ كَانَ أَجْبَرًا فِي رَعَى الْأَغْنَامِ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، كما كان سيدنا محمد ﷺ يرعى الغنم لأهل مكة وهو صغير، كما مارس التجارة مع عمه أبى طالب، وتاجر فى مال السيدة خديجة رضى الله عنها يقول: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم كنت أُرعاها على قراريط لأهل مكة» (رواه البخارى).

ولقد أولت الشريعة الإسلامية الأعمال العامة، والأعمال الخيرية التطوعية بخاصة، أولتها كبير عنايتها، وعظيم رعايتها، وحثت عليها فى كثير من آى الكتاب العزيز ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ومن أهم معالم الأعمال التطوعية فى ظلال الشريعة الإسلامية التجرد، وحب الخير، وانتظار الثواب من الله وحده يوم القيامة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

والأعمال الصالحة هذه لا تقتصر على عمل بعينه، أو مجال من مجالات الحياة فحسب، وإنما تمتد لتشمل كل الأعمال، وذلك أخذًا من توسيع معنى المسجدية، ففى الحديث الشريف: «جعلت لى الأرض مسجداً» (رواه البخارى)، فالأرض التى نعيش عليها هى المسرح الحقيقى لشتى مجالات أعمال البشر، والصالحون من عباد الله هم الذين يعمرّون هذه الحياة، بكل نافع مفيد، ويقدر ما يحرص الناس على ذلك بقدر ما يتغير وجه الحياة إلى الأفضل والأحسن.

والأعمال الصالحة تستغرق العمر كله، حتى ولو أوشك سامر الحياة أن ينفذ، ففى الحديث الشريف: «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفل» (رواه أحمد).

فهل بعد هذا كله تلصق التهم بهذا الدين بأنه وراء تخلف المسلمين، اللهم إنا نبرأ إليك من هذه الافتراءات، فدينك يحمل فى طياته الخير الكثير.

الحذر وحسن الظن

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» (رواه البخارى).

فمع هذا التوجيه النبوى السامى، نقضى هذه اللحظات، متدبرين متأملين، لكى نأخذ لأنفسنا العظة والعبرة، فهذا الحديث الشريف على وجازة لفظه، يتضمن نصيحة نبوية غالية، لا تُقدر بثمن، ولا تُشتري بمال، فهى الحكمة بعينها، ويكفيها صحة ودقة أنها صادرة عن رسول الله ﷺ وهو فى حرصه على الأمة ودأبه عليها مَنْ هو، إنه النذير الأمين.

فإذا كنا نعرف أن الخير والشر يسيران جنباً إلى جنب، فى صراع مرير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الإيمان الصحيح بالله رب العالمين، إنما يستقر فى وجدان صاحبه على أساس سليم من الحكمة السديدة، والعقل الواعى المستنير، ومن هنا ترجع أهمية هذا الحديث فى مجال التربية الاجتماعية، والاجتماع البشرى المتحضر، فهو دعوة لكل مسلم كى يعالج كافة شئونه فى ضوء التجارب التى مرت به، والتى تعرض لها هو، أو تلك التى تعرض لها غيره، وبلغه خيرها، فإذا تصرف الإنسان تصرفاً ما، وأصابه خطر من جرائه، فإن عليه أن لا يعاود الكرة من جديد، ولا يتصرف مثل هذا التصرف مرة أخرى؛ لأنه إذا لم يستفد درساً من تصرفه الأول، وكرره مرة ثانية فإنه سيقع فى نفس الخطر الذى وقع فيه أولاً، ويكون مثله حينئذ كمثلك ذلك الإنسان الذى وضع يده فى جحر من جحور الأرض فلدغته حية أو عقرب. ومن هنا جاء هذا التوجيه النبوى الكريم، بالتنبيه إلى أنه لا ينبغى للمؤمن أن يتعرض للأذى من موطن واحد مرتين أو أزيد «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وإنما خص النبى ﷺ المؤمن بهذا التوجيه؛ لأن المؤمن دائماً وأبداً يحسن الظن بالناس، وقد يدفعه ذلك إلى السهو أو الغفلة من أساء إليه مرة فينخدع بمعسول

الكلام أكثر من مرة، ومن هنا جاءت هذه النصيحة، حتى يكون المؤمن فى حسن ظنه بغيره أكثر حرصاً وحذراً، حتى لا يعرضه حسن ظنه للأذى الكثير فحسن الظن مطلوب، والفتنة والحذر مطلوبان كذلك.

ومما لا شك فيه أن هذه الحكمة تلقى لنا أضواءً كاشفة على كثير من جوانب الحياة الاجتماعية، وبخاصة أولئك الذين يلدغ الواحد منهم أكثر من مرة من جحر واحد، كما تسوقهم الغفلة إلى خوض التجارب القاسية التى تعرضوا لمراراتها أول الأمر، وبخاصة فى محيط الرفاق والأصدقاء، بل فى شتى مجالات الحياة، فالعامل الذى يخفق فى عمله مرة، والطالب الذى يرسب فى دراسته عاماً، والتاجر الذى يخسر فى تجارتها، وكذلك المريض الذى يعرف أنواع الطعام والشراب، أو الأعمال التى تزيد من علته، وتضاعف مرضه، وكذلك المدخن والمدمن، وكل إنسان يتعرض لنوع من الإخفاق أو الأذى كنتيجة لتصرف قام به، فإن هؤلاء وأولئك إن لم يتنبهوا لذلك، ويقلعوا عن هذه التصرفات، فإنهم يضعون أيديهم فى ذات الجحر الذى لدغوا منه سابقاً، والواجب يحتم على كل منهم أن يقف مع نفسه متدبراً متأملاً، حتى يستفيد بهذه التجارب التى مرت به، أو بغيره.

والقرآن الكريم دستور هذه الأمة الخالد، يلفت أنظارنا ويوجه عقولنا إلى أخذ الحذر فى مواضع كثيرة منه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

ويقول رسول الله ﷺ «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود» (السيوطى فى جامعه الصغير).

وهكذا نرى أن الإسلام دين يفرض على أتباعه أن يكونوا على مستوى المسؤولية فى كافة أمورهم، يعالجون شئون حياتهم فى حكمة، وعقل، ويتصرفون فى ضوء التجارب الصادقة، فى حرص وذكاء، فالمؤمن لا يُخدع، ولا يستغل، ولا يستغفل، ولا يلدغ من جحر واحد مرتين. فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، والباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، يا من أمره بين الكاف والنون، يا من تقول للشئ كن فيكون.

تربية الشباب

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي غَمٍّ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) [لقمان: ١٣ - ١٩]

لقد عني الإسلام بإعداد النشء عناية عظيمة، فأولاهم فائق توجيهه ورعايته، ذلك لأن الشباب في كل أمة هم طلائعها الفتية، وسواعد القوية، التي تخط لها صحائف المجد التالذ، والعز الخالد، ولا عجب في ذلك فهم وصية رسول الله ﷺ فقلوبهم رقيقة، وأفئدتهم لينة، وهم من قبل ومن بعد أمانات غالية لدى أهلهم وذويهم، وعارفيهم ومخالطيهم، ولا نحسبنا مبالغين أو مغالين إذا قلنا: إنهم أمانات غالية في أيدي كل من له شأن بولاية أمرهم من قريب أو من بعيد، كالأباء والأمهات، والأساتذة، والمربين، والدعاة، والمرشدين.

وعليه فإن في تقديم هذه الوصية الجامعة من الخير ما فيه، فهي بحق وصدق تشكل الخطة الإسلامية الرائعة والجامعة في تربية الشباب، فقد جاءت على لسان رجل لابنه، من منطلق الشفقة والرحمة، ونحن نستطيع أن نبين أهم الأخلاق الإسلامية التي تضمنتها هذه الوصية على النحو التالي:

* الاهتمام بجانب العقيدة الصحيحة: فالذي يستطيع العبد أن يصرف عبادته إليه

هو الله رب العالمين، فلا ينبغي ولا يليق أن يشرك العبد بربه أحداً، لأن الشرك يسوى بين المخلوق والخالق، ويسوى بين من لا يملك أدنى شىء بمن فى يده ملكوت كل شىء، وهذا هو الظلم بعينه، ظلم للنفس، وظلم للخالق، وظلم للشريك المتخذ من دون الله، فالركيزة الأساسية فى الإصلاح هى العقيدة.

* الاهتمام بالعمل النافع المثمر: ويأتى فى مقدمة هذه الأعمال جميعاً الصلاة، لما لها من أهمية فى تحقيق صلة العبد بربه وخالقه، فهى باكورة ثمار الإيمان الصحيح بالله رب العالمين، وهى من جانب آخر ثمرة مثمرة، فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كما أن العقيدة الصحيحة تسهم بفاعلية فى تقديم الخير للمجتمع، فتحض صاحبها على فعل الخير والصلاح، وتصد فى نفسه روح الشر والعدوان والفساد، من خلال ما تثمره فى نفس العبد من التخلق بخلق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما أنها تنمى فى الفرد روح التحلى بالصبر فى مواجهة الشدائد والأزمات على نحو ما ورد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

* الوفاء بمتطلبات السلوك العام الفاضل، فتدعو إلى الإحسان إلى الوالدين وبرهما، والابتعاد عن كل ما من شأنه الإضرار بالآخرين، كالزهو والغرور، والخيلاء والتعالى على الناس، وكذلك كل التصرفات المزعجة.

* رياضة النفس على اللجوء إلى الله تعالى فى أوقات الشدة والرخاء، ففى الحديث الصحيح: «تعرف على الله بالرخاء يعرفك فى الشدة» (الدر المنثور للسيوطى)، ويقول أيضاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (رواه الترمذى).

فهل بعد هذا البيان محل للمزايدة على الإسلام وأهله؟
ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

الأخذ بأسباب القوة

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (رواه مسلم).

ومع خلق الأخذ بأسباب القوة يرشدنا النبى الكريم ﷺ إلى ذلك، ولا يقتصر ذلك على مجال بعينه، وإنما يمتد ليشمل سائر مجالات الحياة، ويحتل مركز الصدارة فى ذلك كل قوة الإيمان بالله رب العالمين، فإذا ما قوى إيمان العبد بربه ازداد له حبا، وازداد منه قربا، فيصبح مصدر خير وبركة، وعنصر فضل وكرامة فى كل موقع يعمل به، فلا بخل ولا حسد، ولا خيانة ولا وغدر، ولكن العبد يصبح عبداً ربانياً تتوهج فى نفسه شعلة الإيمان وفيض الخير من جوانحه على جوارحه، فيتحلى بطهارة القلب والروح، ونظافة البدن والجوارح، ويكون عبداً ربانياً يقول للشئ: كن فيكون.

ومجالات القوة فى دنيا المسلم متعددة ومتنوعة، فالمسلم مطالب بالمحافظة على سلامة جسده، وصيانة بنيانه، ولن يتحقق له ذلك إلا فى ظل مراعاة قواعد الاعتدال والتوسط فى كل مرافق الحياة، وبخاصة فى الطعام والشراب، يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

يقول جل ذكره وتقدس أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ويقول رسول الله ﷺ: «بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلاث لطعامه، وثلاث لشرابه، وثلاث لنفسه» (سنن الترمذى).

فالمسلم القوى فى إيمانه، القوى فى بنيته وهيئته، القوى فى عزيمته وإرادته،

يشكل إضافة فاعلة فى دنيا الناس، حيث يصبح أكثر قدرة على الإنتاج والإبداع والابتكار، بما فيه خير البلاد والعباد، كما أنه يصبح قادرا ومؤهلا للذود عن الأهل والوطن والعشيرة إذا ما دعت لذلك الدواعى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كما دعت الشريعة كذلك إلى أخذ أسباب القوة الاقتصادية، بتنمية الموارد واستغلالها الاستغلال الأمثل، وترشيد الطاقات البشرية وتأهيلها التأهيل السليم، وقد وجه النبي ﷺ رجلاً جاء يسأله عطاء، وقد رأى فيه النبى قدرة على العمل والكسب، فقال له: «اذهب واحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً» (رواه أبو داود)، فكان هذا التوجيه خيراً وبركة لهذا الرجل ولأمثاله.

أضف إلى ذلك كل اهتمام الإسلام بالقوة المعرفية التى تجعل للحياة معنى فى ظل اتباع أحدث الأساليب فى العمل والاكتساب، فذلك كله أعون على معرفة الله وخشيته، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فعلى الأمة الإسلامية أن تحرص على تنفيذ هذه التوجيهات بدقة وإخلاص حتى تضرب للناس المثل فى الجد والمثابرة، وحتى تخرس ألسنة الماكرين، الذين لا يفتنون يذكرونها بالشر، ويضمرون لها العدا، مع أنهم يتقبلون فى خيرها، والله من وراء القصد.

* * *

الاستقامة

يقول الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] .

الاستقامة: الطريق الذي يكون على خط مستو، واستقامة الإنسان يستلزم المنهج المستقيم نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] .

هذه الآيات مجموع آيات قرآنية تكشف عن شخصية رسول الله ﷺ وما يدعو إليه من مجتمع قوى قائم على الحق والعدل سالكا الطريق المستقيم أو بالتعبير القرآنى الصراط المستقيم، والصراط المستقيم له معان عدة تنطوي فى الدين والإسلام والقرآن والرسول فكلها معان تزرع القيم وتثبت العقيدة، وترسخ المبادئ التى جاء بها القرآن.

الدعوة إلى توحيد الله، وإلى عبودية الله واضحة كل الوضوح من خلال الآيات الموجهة إلى الرسول مباشرة باعتباره داعياً وهادياً وموجهاً ومرشداً ويعطى هذا المجتمع قوة، وما أجمل القوة العادلة عندما تنساب برداً وسلاماً فتحمو المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة وتطفى الآلام التى برحت بالمظلومين والمستضعفين.

إن القوة التى تقيم بين الناس الموازين بالقسط هى ما أمر الإسلام بإعداده على بذل النفس والنفيس فيه، وكأن الإسلام يود لو أنصف الناس من أنفسهم بالعقل والحكمة بدل أن يلتزموا القهر والعنف غير أن غرائز السوء غلبت فلم يبق من قمعها بد. والأديان لا تحمل السلاح إلا مكرهة، وأنبياء الله كافة كانوا يتمنون لو استمسك الناس بفضائلهم، وتعرفوا إلى ربهم وكرسوا حياتهم فى شكر نعمه وأحبوا ضمايرهم بمراقبته، وأحسنوا الاستعداد للقاءه وذلك لا يتم إلا من خلال منهج قويم وصراط مستقيم ولننظر إلى ما وجهه لرسول الله ﷺ من مجموع الآيات: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]،

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٦] .

والاستقامة هى التى تحدد الشخصية السوية التى يكون لها أثرها البالغ ودورها الفعال فى بناء المجتمع وتكوين الأمة وتشكيل الحضارة وتطهير المجتمع من الأرجاس والمنكرات والاستقامة لها طبيعتها ومهمتها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والكفر والنفاق والشقاق، من الحسد والرياء وهضم حقوق الضعفاء إلى نور العلم والإيمان والمعرفة، وبالاستقامة ينضبط السلوك الفردى والجماعى، والاستقامة تعلمنا حقوق الأفراد وحقوق الجماعات.

إن الاستقامة مشكلة للأخلاق ومصلحة لها ومهذبة للضامير ومزكية للنفوس ومنظفة للمشاعر، فما من أمة متقيمة ولها ما لها من الريادة والقيادة والفضائل ولها ما لها من رصيد خلقى كريم فكفى أن الاستقامة توفر الأمن والأمان والسكينة والسلام والاستقرار والوئام.

الاستقامة تحمل مقاصد الإسلام وأهدافه، وتبرز عوامله الذاتية والخارجية فمن مقاصد الإسلام المحافظة على الزمن، الاهتمام بالإنسان، إيجاد القوة المترابطة، ممثلة فى المؤمنين، إيجاد العمل الصالح، التواصى بالحق والتواصى بالصبر، ولنقرأ فى ذلك سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ .

وهكذا تكون الاستقامة ميزة هذه الأمة، الأمة التى اتسمت بالخيرية والوسطية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمة التى حققت الفلاح من خلال ما استقامت عليه، ودعت إليه من حب وإخلاص ويكفى أنها ربطت حقيقة العبادة بحقيقة الاستقامة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١] .

والاستقامة قريبة من كل مؤمن متوجه إلى ربه بالإخلاص والعمل الصالح، فالمستقيم يكون محققاً للهداية وصلاح البال واستقرار النفس حيث يعيش الإنسان فى بحبوبة من العيش وتحقيق السلامة فى الآخرة.

* * *

طلب الرزق والسعى إليه

من حكمة الله عز وجل البالغة أن ربط رزقه الذى قدره بأخذ الأسباب له، يستوى فى ذلك الإنسان العاقل وغيره من الدواب التى خلقها الله سبحانه، فما من مخلوق ذى روح إلا وهو مغروس فيه السعى لطلب رزقه، نجد ذلك فى الإنسان والحيوان والطير وكل هذا يثمر الحركة فى الحياة ويجعل حركة الأحياء قائمة على الأخذ والعطاء، كما أن ذلك يجعل المخلوق خادماً ومخدوماً على السواء، وفى هذا يقول سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ومع أن الله عز وجل قد ربط عطاء رزقه بالأخذ بالأسباب والمشى فى مناكب الأرض إلا أن المؤمن حقا هو الذى يعطى للأسباب حقها من الحركة والعمل والفكر ثم هو بعد ذلك يترك ثمرة جهده وسعيه إلى مسبب الأسباب المعطى الوهاب، وهو الله سبحانه وتعالى موقناً بأن ما يقدره الله عز وجل ومريده هو خير وأولى مما يريده لنفسه، وثمره هذا اليقين سكينه النفس والرضا بما قسم الله عز وجل ولا تتحقق الحياة الطيبة إلا بهذا المعنى، وذلك لأن الحرص على عرض الدنيا مع القلق الشديد لا ريب أنه يؤدى إلى عيشة الضنك، ولهذا حرص رسول الله ﷺ على غرس الرضا بما قسم الله فى نفوس أصحابه وبيّن لهم بوحى من ربه أن الرزق مقدر بقدر الله كالأجل المسمى عند الله سبحانه، فكل منا يأتية أجله المسمى عند ربه كما يأتية رزقه الذى قدر له، فعن جابر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له فأجمعوا فى الطلب؛ أخذ الحلال وترك الحرام » (الترغيب والترهيب للمندرى)، فهذا الحديث الشريف فيه نهى من نبينا محمد ﷺ للمسلمين من الضجر واليأس والقنوط حتى يقولوا بتزيين من الشيطان: سعينا فتأخر رزقنا، فكل شئ مقدر والله سبحانه وتعالى يسوق الأرزاق

لأصحابها بعدله ورحمته التى وسعت كل شىء، وإذا أعطى الله عز وجل عرض الدنيا لإنسان بقدر وأعطى غيره فبسط له رزقه ففى كل خير لمن قدر له ومن بسط له فى الرزق والله عز وجل هو العليم الخبير بما يصلح خلقه، ولهذا بين نبينا محمد ﷺ بأن الغنى لا يتحقق أبداً بكثرة عرض الدنيا، فقد تكون هذه الكثرة سبيلاً إلى التهلكة وخسران الدنيا والآخرة، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وإن الله عز وجل يؤتى عبده ما كتب له من الرزق فأجملوا فى الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم» (مجمع الزوائد للهيثمي)، ثم إن الحرص على طلب عرض الدنيا دون ضابط ودون إيمان، ورضا بما قسم الله تعالى قد يجر بتزيين من الشيطان إلى أخذ الحرام، وذلك عن طريق الغش أو السرقة أو الربا أو التجارة فى الأغذية المغشوشة أو الكذب على الله وعلى الناس، ولهذا غرس رسول الله ﷺ فى نفوس أتباعه الإجمال فى الطلب وفسره بالأخذ من الحلال وترك الحرام حتى يتطهروا من الرجس والدنيا والمذمومات أجمع، وهذه كلمات يسيرة تعد دستوراً وتعد نبأً على المؤمن حقاً أن يتحلى بها حتى لا يقع فى الذلل ويندم حين لا ينفع الندم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا ترضين أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على فضل الله» (المعجم الكبير للطبراني)، أى لا يكن رضا أحد بعمل ما يغضب الله سبحانه، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا تشكرن أحداً تعتقد أنه ساق إليك رزقاً، فالحمد لله تعالى وحده ولا تذهبن أحداً على ما لم يؤتكم الله أى لا تخاصمن أحداً فى طلب عطاء لم يقدر لك، فإن رزق الله عز وجل بقسطه وعدله جعل الروح والفرج والرضا فى اليقين وجعل الهم والحزن فى السخط.

* * *

رعاية الآباء للأبناء وحفظ حقوقهم

من رحمة الله عز وجل التي وسعت كل شيء أن جعل وداً وشعوراً عاطفياً من الآباء تجاه أبنائهم بصورة تفوق كل شعور بين مخلوق ومخلوق، وجذور هذا الشعور تعود إلى الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الخلق عليها حيث نجد أن رعاية الأم لولدها لا تقتصر على الإنسان وحده بل نجد في معظم ما خلق الله عز وجل من حيوان وطيور والدواب التي تدب على الأرض، ومنهج الله سبحانه وتعالى يقوم دائماً على تجسيد هذا الشعور وتقويمه وإصلاحه فإنه ولا ريب يتأثر بهذا ليكون بعد ذلك لبنة صالحة من لبنات المجتمع وفي هذا يقول أحد الشعراء:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عودُه أبوه

والإسلام قد حرص على رعاية الناشئة حتى قبل أن يولدوا ويتمثل ذلك في الحض على اختيار المرأة الصالحة ذات الخلق والدين، يقول نبينا محمد ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» (المغنى عن حمل الأسفار للعراقي)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تتكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» (رواه أحمد)، والسفر في هذا أن الإنسان عندما يولد فإنما تتفتح عيناه أولاً على أمه فيراها فيتأثر بقولها ويتأثر بسلوكها ويتأثر بعباداتها، فهي التي تعلمه كيف يعبر ويبين عما في نفسه، وهي التي تغرس فيه الخلق فلا عجب إذا كان الإسلام قد حض على اختيار المرأة ذات الخلق والدين.

ورحم الله من قال:

مَنْ لى بتربية البنات فإنها في الشرق علّة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وبعد ذلك نجد أن الوالدين عليهما حقوق على الولد حتى في اختيار الأسماء فما ينبغي لوالد أن يختار لولده اسماً يؤذيه في أيام عمره بل عليه أن يختار

الأسماء الحسنة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم وأحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن» (رواه أحمد)، وقال رسول الله ﷺ: «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة» (رواه أبو داود)، وكثيراً ما غيّر نبينا محمد ﷺ بعض الأسماء التي تسمى باسم بغیض، فهذه امرأة كان يقال لها: عاصية فسمّاها رسول الله ﷺ جميلة، وهذا من مكارم الأخلاق حتى لا يطارّد الإنسان باسم يكرهه أو يعير به.

ثم إن أفضل نفقة ينفقها الإنسان هي النفقة التي تكون على ولده، ومخطئ من ضيع أهله وقتر عليهم، ولا ريب أن هؤلاء الذين يبذرون المال تبذيراً يسرفون في أمور لا طائل من ورائها، ثم بعد هذا يقترون على أولادهم، لا ريب أنهم قد قصروا فيما أوجب الله عليهم وسيسألون عن ذلك يوم القيامة، يقول نبينا محمد ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته» (رواه البخاري)، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» (رواه أحمد)، أي يقتتر ويهمل في الإنفاق على من يرعاهم، وبالطبع هم أولاده بالدرجة الأولى بل إن الإسلام جعل من يسعى لينفق على أولاده صغاراً كالمجاهد في سبيل الله، أو هو مجاهد حقاً، هذا وينبغي على الوالدين الحرص على غرس مكارم الأخلاق وذلك بالسلوك العملي فما ينبغي لوالد أن يكذب أمام ولده أو يخون أو يغش لأنه إن فعل هذا فهو ضال مضل يحمل وزراً عن نفسه ويحمل أوزار أولاده بإضلالهم، وما ينبغي له أن يفرق بينهم في شعوره العاطفي أو في العطاء بل يجب أن يكونوا في البر سواء، ومن الخطأ البين أن يمدح ولدًا ويذم الآخر، ويجهر بحبه لذلك على ذاك حتى لا يوقع بينهم العدواة وحتى لا يفتح باب الشيطان ليغرس بينهم الأحقاد والضغينة، وإذا وصل الولد إلى سن السابعة فعليه أن يأمره بالصلاة ويصحه للمسجد لقوله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع» (رواه أحمد).

مخالطة أهل الإيمان والتقوى

إن المؤمن الصادق فى إيمانه، الكريم فى أخلاقه هو الذى يحرص على مخالطة أهل الإيمان والتقوى ولا يمنعه فقرهم من مجالستهم ومصاحبتهم، ومؤانستهم، والتواضع لهم، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

لقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنها نزلت فى أشرف قريش حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال، وعمار، وابن مسعود، وليجعل لأولئك مجلساً على حدة، فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء الفقراء بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

والعنى: عليك أيها الرسول الكريم أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك الذين يعبدون ربهم، ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات فى الصباح والمساء، وبدوامهم على ذلك دون أن يريدوا شيئاً من وراء هذه العبادة سوى رضى الله عنهم ورحمته بهم، ولا تصرف عينك عنهم، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء حرصاً على مجالسة أهل الغنى والجاه حباً فى إيمانهم، ولا تطع فى تنحية المؤمنين الفقراء عن مجلسك أقوال أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا، لا تطع أولئك الغافلين الذين كان أمرهم مخالفاً للحق ومجاوزاً للصواب، ومؤدياً للضياع والخسران. فالآية الكريمة تسوق للناس توجيهاً حكيماً فى بيان القيم الحقيقية للناس، وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى لا فى الغنى والجاه.

ولقد روى النبى ﷺ أصحابه على هذا الخلق الكريم، خلق مخالطة أهل الإيمان والتقوى. روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال: «مر رجل على النبى ﷺ

فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك فى هذا؟ فقال: رجل من أشرف الناس، هذا والله حُرٌّ إن خطب أن يُزَوَّج، وإن شفع أن يُشَفَّع، فسكت رسول الله ﷺ، فقال له: وما رأيك فى هذا؟ فقال يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا والله حُرٌّ إن خطب ألا يزوّج، وإن شفع ألا يُشَفَّع، وإن قال ألا يُسْمَعَ لقوله، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا» (رواه البخارى).

إن الفضل وعلو المنزلة ليس بالغنى والجاه ولا بالقوة فى الدنيا، ولكنه بمقدار شكر الله على ما أنعم، وأنه سبحانه هو العالم وحده بمن يستحق الفضل علما ليس فوقه علم.

وهكذا سار الرسول ﷺ وأصحابه على هذا الخلق الكريم خلق مخالطة أهل الإيمان والتقوى وتقديرهم والاعتراف لهم بالفضل، فهذا عبد الله بن مسعود يعترف له الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بالفضل فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: سمعت عليا رضى الله عنه يقول: أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها فنظر أصحابه إلى دقة ساقه فضحكوا، فقال النبى ﷺ: «ما يضحكم؟ لرجلا عبد الله فى الميزان أثقل من أحد» (الاستيعاب فى معرفة الصحابة ٩٨٩/٣).

وهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى كتابه لأهل الكوفة: (إنى بعثت عمار ابن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى)، وهؤلاء هم أهل الكوفة يقولون لأمير المؤمنين على رضى الله عنه ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من عبد الله بن مسعود. فقال على: ناشدكم الله إنه لصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم إنى أشهدك اللهم أنى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل، وهكذا استجاب الرسول ﷺ وأصحابه لقول الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْفَنِ قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾.

المحافظة على قيمة الوقت

لقد وهبنا الله سبحانه عُمْراً، وجعل له خاتمة ونهاية، ولا ريب أن المؤمن الواعى يُحسُّ فى أعماقه أنه فى سباقٍ مع هذه النهاية، يحاول أن يسجل قبلها أكبر قدر من العمل النافع الذى يحتاج إليه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

فموقف الإنسان يوم الحساب مرتبط بالزمن، فهو يحبُّ أن يُقرب الله منه ما عمل من خير، ويتمنى أن يجعل الله بينه وبين السوء أمداً بعيداً وهيهات إلا بفضل من الله ورحمته.

إن الرسالة الإلهية تجعل من أعمال الخير التى طلبها الحق سبحانه إلى عباده كالصلاة والإنفاق رصيذاً مدخراً ينفع صاحبه يوم الحساب، وهو يوم لا يبيع فيه ولا خلال، وإنما تدور حركته على الجزاء المؤدى كل من قدم عملاً صالحاً فاستحق أن يُثاب عليه، أو اقترب عملاً سيئاً فاستوجب غضب الله عليه، إن الإحساس بالزمن يتفاوت من شخص إلى شخص، كما يختلف من أمة إلى أمة. ولم يعرف التاريخ أمة قدس دستورها الزمن، وعظم شأن الوقت كهذه الأمة التى حدثها الله سبحانه دائماً عن نفسه، وعن خلقه حديثاً مقيساً بكل دقة.

لقد حدث الله عن خلق السموات والأرض فذكر أنه كان فى ستة أيام، وحدث عن أمره وإرادته، لما يوجد من مخلوقات فذكر أن ذلك يتم فى غير زمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وحدث سبحانه حديثاً رهيباً عن طريقة الحساب على الزمن الماضى والعمر الضائع فى آيات بينات تنصع لسماعها القلوب، قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ

الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٦].

إن الدقائق والثواني فى أعمار الأمم وفى حياة الأفراد لها وزن وحساب، فالساعات الطويلة ليست فى حقيقتها سوى دقائق وثوانٍ، وضياح الثوانى هو فى حقيقته ضياح لتلك الساعات التى ينقضى بمرورها عمرُ الإنسان وينتهى بها كفاحه من أجل الحياة ومن أجل التقدم، ومن أجل الآخرة، والواقع أن الثروة التى يجمعها أى إنسان مكافح ليست سوى كمية من الزمن تحولت إلى ذهب، كم من الساعات والأيام، والسنين تضع فى حياة هذه الأمة على المقاهى، وفى ضروب اللهو، وفنون الرخاوة والتهتك؟ بل فى النوم والكسل، والفوضى، والثروة داخل البيوت والمكاتب والمصانع والدواوين؟ على حين يسهر أعداؤنا، ويكدحون فى كل دقيقة، بل فى كل ثانية من أجل تحصيل أسباب القوة، ومن أجل فرض سيطرتهم على مصائر العرب والمسلمين.

فنحن نضيع السنين، ولا نحس بمرورها، وهم يحاسبون أنفسهم على الثوانى مخافة أن تمضى دون إنتاج؛ لأن ذلك جزء من تقدمهم، ونحن المسلمون مأمورون أن نحافظ على الوقت، وأن نعمل حساب المستقبل فى نصوص عقيدتنا، وفى سلوك أسلافنا، وفى شعائر ديننا الحنيف، وأن نصنع من أعمارنا، من أيامنا، من دقائقنا وثنائنا أسلحة للنصر وعدة للبقاء ومعبرا للخلود، وطريقا إلى رضوان الله.

* * *

الاعتدال في الطعام والشراب

لقد امتن الله على عباده بأن سخر لهم الأنعام حيث أسقاهم من بطونها لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طرياً ناضجاً وحاضراً ومدخراً وطعاماً وشراباً لذيذاً مباحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [٦٦] وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧].

لقد أباح الله لنا الطيبات من الرزق وهى كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل فى ذلك جميع الحبوب والثمار وجميع حيوان البر والبحر إلا ما استثناه الله كالسباع وغيرها من الخبائث، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٥]، ونلاحظ أن الله تعالى كرر إحلال الطيبات مع ذكره فى الآية قبلها وذلك من قبيل الامتنان ودعوة العباد إلى شكره وذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ولقد أنكر الله على من حرم ما أحل الله من أنواع اللباس والطيبات من الرزق من مأكّل ومشرب بجميع أنواعه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والمعنى: من ذا الذى يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد، ومن ذا الذى يضيق عليهم ما وسعه الله لهم، وهذا التوسع من الله لعباده المؤمنين بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، ومفهوم الآية: أن من لم يؤمن بالله أو استعان بالطيبات على معصية الله فإنها غير خالصة ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

وإذا كان الإسلام يبيح الاستمتاع بالطيبات من الرزق فهو أيضاً بجانب ذلك

يأمر العباد بالعدل والقسط في التمتع بهذه الطيبات، وألا يكون سبباً لنزول العقوبات ومحو البركات، بل يجب أن تكون عوناً على الطاعات لرب الأرض والسموات، يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

ولقد بين الفقهاء أن أكل الطيبات على مراتب، فمنه ما هو واجب ومنه ما يندفع به الهلاك، فإن ترك الأكل والشرب في هذه الحالة فقد عصي؛ لأن فيه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ويقول جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، ومن الأكل ما هو مأجور عليه، وهو ما زاد على ما يندفع به الهلاك، ومن الأكل ما هو مباح وهو ما زاد على ذلك إلى حد الشبع لتزداد قوة البدن، أما الأكل فوق الشبع إلى حد التخمّة وإفساد المعدة فهو حرام.

الاعتدال في الطعام والشراب في رمضان:

إن من حكم الصوم في رمضان فهم الصوم على حقيقته ألا نضع عند الإفطار ألواناً من الطعام والشراب، نُسْرِف فيها كمّاً، وننوع فيها كيفاً، ونجمع ما فاتنا من وجبات نرحم بها موائدنا، ونرهق بها مواردنا. إن المعدة سبب الشر، ومصدر البلاء للإنسان، ومبعث الأسقام والأمراض لذلك فرض الله الصوم علاجاً لها من هذه الآفات المهلكة. إن الإسراف في الطعام والشراب يؤدي إلى التخمّة ويضر بالصحة، ويدعو إلى الخمول والركود، عن المقدام بن معدّي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يُقْمَنُ صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» (رواه الإمام أحمد والترمذي)، هذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها، فلقد أجمع الأطباء أن ملء المعدة مهلك مضعف، وسبب الأوجاع المختلفة، ومزيل لقوة الشباب ومُضِرُّ به ويوصف العلاج الآن بالإقلال من الطعام ما استطاع الإنسان، إن اكتساب الصحة جاء من عدم الشبع، قال لقمان الحكيم لابنه: (يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة).

حسن تربية النفس

إن كل الفرائض التى كلفنا الله بها ومنها الصيام ليست حَجَرًا على حرية الإنسان، ولا تحد من نشاطه الفكرى، ولكنها توجيه لعقله ووقاية له من الانحراف الضار المؤذى؛ لأن الإسلام يريد أن تكتنف السعادة وجود الإنسان، والصوم ركن أساسى فى تربية النفس على الرجولة والخلق الحسن والصبر.

أثر الصوم فى حسن تربية النفس:

إن الصوم يُوجدُ الخُلُقَ الكريم القويم، ويعوِّدُ الإنسانَ الصبرَ على مشاق التكاليف ومطالب الحياة وآلامها وشدائدها، كما أنه يربى خلق الإرادة القوية التى تُكسِبُ الإنسان شجاعة وإقداماً فمن لا إرادة له لا يستطيع أن يواجه الحياة مواجهة فعالة منتجة، والصوم يربى خلق الأمانة؛ لأن الصوم سرُّ بين العبد وربّه، فالذى يراقب مولاه فى صيامه يُؤمن على كل ما يُسند إليه من الأعمال. إنه كذلك يربى خلق التضحية حيث يضحي الصائم بمطالب نفسه فى سبيل مرضاة ربه كإحساناً جَمَاح شهوته منصرفاً عن شيطانه وهواه، وتلك صفات تكونُ الأمم التى تريد أن تنهض وتكون قائدة لغيرها إنها تحصنُ أبناءها من مفاسد الأخلاق وتُعدهم لمصارعة الشدائد ومواجهة أحداث الحياة، إنها تُعدُّ نفوسهم إعداداً كاملاً يرتفع بها إلى مستوى الإنسانية الفاضلة فتتجه إلى الخير والبر والإحسان.

إن شهر رمضان فرصة لمن يريد أن يطهر نفسه، وتُغفَر له ذنوبه، والله يحب من عباده التوابين ويحب المتطهرين، وقد فتح الله باب التوبة للإنسان ودله عليها ودعاه إليها ووعد القبول إذا تاب، فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «رغم أنفُ رجل ذُكرتُ عنده فلم يُصل علىّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان فأنسلخ قبل أن تغفر ذنوبه، ورغم أنف رجل أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة» (أخرجه أحمد والترمذى).

إن علينا أن نقتدى برسول الله ﷺ في صيامنا فلقد كان أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ﷺ فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلة: كان يجود بأنواع الجود من بذل العلم والمال وبذل نفسه في سبيل إظهار دينه وهداية عباد الله وإيصال النفع العميم بكل طريق؛ يجيب سائلهم، ويعلم جاهلهم، ويقضى حوائجهم، ويكثر من الصدقة والإحسان في رمضان، وبهذا كون مجتمعاً إيجابياً فعالاً، وكان يقول صلوات الله وسلامه عليه: «من أفطر صائماً على طعام وشراب من حلال صلت عليه الملائكة في ساعات شهر رمضان، وصلى عليه جبريل ليلة القدر» (أخرجه الطبراني في الكبير).

جدير بنا أن نصوم هذا الشهر الكريم شكراً لله على نعمة نزول القرآن فيه فقد كان قضاء على الباطل الذي أفسد على الإنسان عقله فعبد ما لا يستحق العبادة، واتجه إليه في شدته، فعرفه القرآن ربه وهداه إليه، كان القرآن قضاء على هذا الباطل الذي أفسد على الإنسان عاطفة الرحمة فقتل الأب الأبناء، واستحل الإنسان مال الغير، وهتك الأعراض فعدل القرآن غرائزه، واتجه بها الوجهة الإنسانية الصحيحة، ومحا الفوارق بين الطبقات فحقق بهذا العدالة الاجتماعية، فيجب أن نجعل رمضان رحلة رياضية روحية نخلع فيها نفوسنا من هموم الدنيا وآلامها إلى لذة اكتساب المعاني السامية وإلى السعادة التي لا يعرفها إلا الصائمون المخلصون الذين يبدوون صيامهم باسمك اللهم صُمتُ، ويختمونه باسمك اللهم أفطرت، وطوال يومهم في أعمالهم مسبحين مراقبين مولاهم فيسبُحُ عليهم حُلل الرضا والرضوان، وهؤلاء يكونون مصدر خير لأنفسهم ولأمتهم والناس أجمعين، ما أوجبنا إلى اكتساب تلك المعاني في عهدنا الجديد الذي يجب أن يكون كل فرد عاملاً لا خاملاً ذا ضمير حي يشعر بألم المحتاجين ويترك الأنانية وحب الإثراء على حساب الآخرين واضعاً نصب عينيه قول الرسول الكريم ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه البخاري). علينا أن نعمل فالصوم إنما شرع لتسمو النفس الإنسانية، وتكون أكثر صبراً على العمل والإنتاج، وألا نترك العمل، يجب أن نعمل فكل أعمال الإنسان في دائرة الحلال تصير بالنية الطيبة إلى عمل صالح يثاب عليه.

المساواة

إن الله سبحانه خلق الناس جميعاً من آدم، وخلق آدم من تراب، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، ولقد منع الإسلام التفرقة بين البشر على أساس الجنس أو اللون. قال رسول الله ﷺ: «الناس بنو آدم وآدم من تراب» (رواه أبو داود والترمذي)، وقرر أن التفاضل بين الناس إنما يكون على أساس المعاني الباقية والقيم الخالدة، معاني الآخرة التي يتوقف عليها مصير الناس.. يقول الحق سبحانه في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، هذه الآية من الآيات الكريمة يخاطب الحق سبحانه فيها الناس أجمعين، أبيضهم، وأحمرهم، وأسودهم غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، حاكمهم ومحكومهم، خطاباً صريحاً لا لبس معه ولا موارد، عن حكمة الخلق، والمهمة المتعلقة برقابهم بناءً على هذه الحكمة وجوهر هذا الخطاب، وأن الله سبحانه سوى بين الخلق في أصل الخلقة، فهم جميعاً من ذكر وأنثى، وسوى بينهم في الأصل الاجتماعي، فكل منهم ينتمي إلى شعب أو قبيلة، وجعل مصيرهم محكوماً بسنة الاجتماع، فمن الضروري أن يتعارفوا، ثم قرر الله سبحانه دستوراً لجميع الخلائق مؤداً أن الناس في هذه الدنيا بالنسبة إلى الخالق وفي ميزانه سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وهى كل ما ينال الله سبحانه من عباده، فالمال مهما كثر ليس بذى ثقل فى ميزان الله، والقوة مهما عظمت لا تعدل شيئاً فى حكم الله، وأى جنس مهما ساد لن ينال الله منه شيئاً، وإنما ينال الله من عباده التقوى، فهى أساس الثواب يوم الحساب.

وقد كانت هذه الآية القرآنية أول إعلان فى التاريخ لحقوق الإنسان، وأول تأكيد لكرامته، وأول إشهار لحق المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم، وتباين مستوياتهم، لقد جاء الإسلام وأعلن قراره الحاسم لمشكلة التفرقة بين البشر على

استقامة اللسان

لقد أنعم الله على الإنسان، وجعل له لساناً يتكلم به، ويعبر به عما يريد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١-٤].

إن من آيات الله الدالة على قدرته التامة على كل شيء اختلاف لغات البشر فهذا يتكلم بالعربية، وآخر بالفارسية، وثالث بالرومية إلى غير ذلك مما لا يُعْلَم عدده من اللغات، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التي يتكلم بها أفرادها، ومئات اللهجات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

إن اللسان هو أساس استقامة أعضاء الإنسان وأساس اعوجاجها، إن استقامت استقامت الأعضاء، وإن اعوج اعوجت الأعضاء، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفرّك اللسان تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك فإن استقيمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا» (رواه الترمذي)، إن استقامة اللسان من خصال الإيمان، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (مسند الإمام أحمد). إن لسانك هو الذي يجعل الناس من حولك يحبونك إذا تكلمت معهم بكلام طيب، واللسان أيضا هو الذي يجعل الناس من حولك يكرهونك وابتعدون عنك إذا تكلمت معهم بكلام فيه غلظة وسفاهة وسوء أدب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والمؤمن ليس بذى اللسان، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» (رواه الترمذي)، إن الكلام الطيب من صفات الأنبياء والمرسلين، روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد أن

عيسى عليه السلام مر بخنزير على الطريق فقال له: انقذُ بسلام، فقبل له: تقول هذا للخنزير؟ قال: إني أخاف أن أعودُ لسانى النطق بالسوء.

ولقد بين الله سبحانه أنه من صفات عباد الرحمن إذا مروا بمجلس فيه لغو من القول أو الفعل أعرضوا عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. إن كثيراً من كلام الناس الذى يتحدثون به سرّاً مع بعضهم لا خير فيه إلا ما كان من أعمال الخير كالأمر بالصدقة، أو الأمر بالمعروف، أو الإصلاح بين الناس، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا من حق توضحه أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله من قال خير فغتم أو سكت فسلم» (رواه الديلمى). إن الرجل يتكلم بالكلمة الطيبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو ذكر لله وشكر له ينال بها رضوان الله، وإن الرجل يتكلم بالكلمة الخبيثة من سب وشتم وغيبة وفيمعة وكفر وشرك ينال بها سخط الله فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم» (رواه البخارى).

استقامة اللسان والصيام فى رمضان:

إن الصوم فى معنى الصمت وهذه حقيقة لا تجوزُ فيها، قال سبحانه على لسان مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، فالصوم شطران: صمت عن المحارم، وكف عن المشارب والمطاعم، والأول أجدى شطريه على الإنسانية، فالصوم الحق مجاهدة ومجالدة. ولقد نعى رسول الله ﷺ على الصائمين الذين لا يحفظون لسانهم عن الكذب والغيبة والنميمة، قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» (رواه البخارى) وقوله ﷺ: «إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم» (رواه البخارى).

الاحتفال بالأعياد

لما قدم الرسول ﷺ المدينة وجد أن لأهلها يومين كانوا يلعبون فيهما في الجاهلية، فقال لهم الرسول ﷺ: «إن الله أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الفطر، ويوم الأضحى» (رواه أبو داود)، ولقد جعل الله هذين العيدين بعد عبادة خاصة، فيوم عيد الفطر يأتي بعد صيام المسلمين شهر رمضان، ويوم عيد الأضحى يأتي بعد أداء فريضة الحج.

إن يوم عيد الفطر يومٌ فرح وسرور؛ لأن الله وفق المسلمين للصيام في شهر رمضان وقيام الليل، وقراءة القرآن، والاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، وقيام ليلة القدر والدعاء والتسابق إلى فعل الخيرات، عيد الفطر يوم فرح للمسلمين لأنهم واثقون في جزاء ربهم وكرمهم، وهذا هو الذي يشير إليه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «للسائم فرحتان، فرحة عند إفطاره؛ وفرحة حين يلقى ربه» (رواه أحمد). وما دام هذا العيد يوم فرح وسرور فينبغي ألا نحزن فيه بالذهاب إلى المقابر والبكاء عندها فلنفرح في هذا اليوم ونؤجل أحزاننا إلى أيام أخرى، ويوم العيد يوم الجائزة، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق أن أغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم يمن بالخير ثم يثيب عليه الجزيل، لقد أمركم بقيام الليل فقمتم، وأمركم بالصيام فصمتتم، وأطعتم ربكم فاقبضوا جوائزكم، فإذا صلّوا نادى منادٍ ألا إن ربكم قد غفر لكم فارجعوا راشدين إلى رحالكُم» (المعجم الكبير للطبراني)، ويوم العيد تنزل الملائكة الأرض وينادون بصوت يسمع جميع الخلائق إلا الجن والإنس ينادون فيقولون: يا أمة محمد أخرجوا إلى رب كريم، يغفر الذنوب، فإذا استجاب المسلمون، ولَبُّوا النداء وذهبوا إلى مكان الصلاة، يقول الله: «يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله وأدى واجبه؟ فتقول الملائكة: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن يُوفَّى أجره فيقول الله تبارك وتعالى: أشهدكم يا

ملائكتى أنى قد جعلت ثوابهم على صيامهم رمضان رضائى ومغفرتى» (العلل المتناهية لابن الجوزى).

إن العيد ليس لمن لبس الجديد والتمتع بالحياة فقط، ولكن بجوار لبس الجديد والتمتع بالحياة يكون أيضاً بانسراح الصدر وتكفير الذنوب والعطف على الفقراء والمساكين وإدخال البسمة على اليتيم، والمبادرة بالعفو والصفح عن الذين أساءوا إليك، وإذا كنا مطالبين بالعفو والصفح عن الناس فى يوم العيد فحرى بنا أن نبداً بذوات القربى؛ لأن الله قدمهم على باقى إخوانه المسلمين مع توصيته جل شأنه بالإحسان إلى الجميع قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

إن الصيام يوم العيد حرام، واستشارة الأحزان يوم العيد حرام. إن الله تبارك يُعبد بإشاعة الفرح والسرور، كما يعبد بالجدِّ فى معالى الأمور، فقد ورد فى الصحيحين عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ فى يوم عيد وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال لى: أمزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» (رواه البخارى)، وهذا دليل على أن الله المباح يعد انتصاراً للفترة السليمة، وإبرازاً لروعة أحكام الإسلام، إن يوم العيد هو يوم إفشاء الحب والسلام، فالناس يستنشقون سلاماً ومحبة ولا يخرج من أفواههم إلا الحب والمودة؛ لأن الإسلام يأمرنا بإشاعة الحب والود، وعدم الهجر، قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» (مسند أحمد).

* * *

حسن تسمية المولود

من الأخلاق الاجتماعية المتبعة أن المولود حين يولد يختار له أبواه اسماً يُعرف به، ويتميز لدى القاصي والداني بسببه، والإسلام بتشريعه الكامل اعتنى بهذه الظاهرة واهتم بها، ووضع من الأحكام ما يشعر بأهميتها والاعتناء بها، حتى تعلم أمة الإسلام كل ما يتعلق بالمولود وكل ما يرفع من شأنه ويتصل بتربيته.

أولاً: متى يسمى المولود؟

الأمر فيه سعة فيجوز تسميته في اليوم الأول من ولادته، وجاز التأخير إلى ثلاثة أيام، وجاز إلى يوم العقيقة، وهو اليوم السابع، وجاز قبل ذلك، وجاز بعده، روى أصحاب السنن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل غلام رَهْنٌ بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه، ويُحْلَقُ رأسه» (أخرجه النسائي)، وروى عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لى الليلة غلام فسميته باسم أبى إبراهيم» (رواه البخاري).

ثانياً: ما يستحب من الأسماء وما يكره؟

إن مما يجب أن يهتم به المربي عند تسمية الولد أن ينتقى له من الأسماء أحسنها وأجملها تنفيذاً لما أرشد إليه، وحض عليه، وأمر به نبينا عليه الصلاة والسلام، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تُدْعَوْنَ يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»، وروى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبدُ الله وعبد الرحمن»، كما عليه أن يجنبه الاسم القبيح الذي يمس كرامته، ويكون مدعاة للاستهزاء به والسخرية عليه، فهذا رسول الله ﷺ كما روى الترمذي عن عائشة: «كان يغير الاسم القبيح»، وروى الترمذي وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنة لعمر كان يقال لها العاصية فسمها رسول الله ﷺ جميلة.

كما عليه أن يجنبه الأسماء التى لها اشتقاق كلمات فيها تشاؤم، حتى يسلم الولد من مصيبة هذه التسمية وشؤمها، روى البخارى فى صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده قال: أتيت إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال: ما اسمك؟ قلت: حزن. فقال: أنت سهل، قال: لا أغير اسما سمانيه أبى قال ابن المسيب: فما زالت تلك الحزونة فينا بعد.

كما عليه أن يجنبه الأسماء المختصة بالله سبحانه فلا تجوز التسمية بالأحد ولا بالصمد ولا بالخالق ولا بالرزاق ولا بغيرها، قال أبو داود فى سننه: إن هانئا لما وفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة مع قوم كانوا يكونونه بأبى الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: إن الله هو الحكم وإليه الحكم فلم تُكنى أبا الحكم؟ فقال: إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم، فرضى كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا؟ فما لك من الولد؟ قال: لى شريح، ومسلم وعبد الله، قال ﷺ: فمن أكبرهم؟ قال: شريح، قال: فأنت أبو شريح.

كما عليه أن يجنبه الأسماء المعبدة لغير الله كعبد العزى، وعبد الكعبة، وعبد النبى، وما شابهها فإن التسمية بهذه محرمة باتفاق، أما قول النبى عليه الصلاة والسلام فى غزوة حنين: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» (رواه البخارى)، فهذا ليس من باب إنشاء التسمية وابتدائها، كما يقول ابن القيم، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذى عرف به المسمى دون غيره ولاسيما فى المواقف التى فيها تحد للعدو كموقف النبى والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرّم.

* * *

توظيف الطاقات واحترام المواهب وتقدير الكفاءات

إن من أخلاق الإسلام توظيف الطاقات، واحترام المواهب، وتقدير الكفاءات لصالح المجتمع المسلم؛ لأن الإسلام دين يدعو إلى الرقى والتقدم لصالح البشر؛ فالعلاقة بين العبد وربّه ليست مقتصرة على الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما العلاقة بين العبد وربّه تمتد لتشمل الرحمة بعباده والعدل بينهم أياً كان جنسهم وأياً كان لونهم. ومن الرحمة والعدل بالناس أن يوظف أولو الأمر الطاقات الموجودة في المجتمع لصالح العام وأن يحترموا المواهب وأن يقدروا الكفاءات.

إن رسول الله ﷺ كان قدوة حسنة في الاستفادة من الطاقات الموجودة في المجتمع وذلك باختيار الرجل المناسب في المكان المناسب على أساس من الصلاح والأمانة، قال تعالى على لسان ابنه شبيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، لقد اختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير لأعظم مهمة في ذلك الوقت، وهي أن يكون مصعب سفيره إلى المدينة يفقه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة، ويدخل غيرهم في دين الله، ويعد المدينة ليوم الهجرة العظيم، كان في أصحاب الرسول ﷺ يومئذ من هم أكبر منه سناً وأكثر جاهاً، وأقرب من الرسول ﷺ قرابة ولكنه اختار مصعب الخير وهو يكل إليه بأخطر قضايا الساعة ويلقى بين يديه بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة والدعاة، وحمل مصعب الأمانة مستعيناً بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم، ولقد غزا أفئدة أهل المدينة بزهده وترفعه وإخلاصه فدخلوا في دين الله أفواجا. لقد جاءها يوم بعثه الرسول ﷺ وليس فيها سوى اثني عشر مسلماً هم الذين بايعوا النبي ﷺ من قبل بيعة العقبة، ولكنه لم يكذب بينهم بضعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول ﷺ.

وفي موسم الحج التالي لبيعة العقبة كان مسلمو المدينة يرسلون إلى مكة للقاء الرسول ﷺ وفداً يمثلهم، وينوب عنهم، وكان عدد أعضائه سبعة من مؤمنات ومؤمنات تحت

قيادة معلمهم ومبعوث نبيهم إليهم مصعب بن عمير، لقد أثبت مصعب بكياسته وحسن بلائه أن رسول الله ﷺ عرف كيف يختار، فلقد فهم مصعب رسالته تماما ووقف عند حدودها، عرف أنه داعية إلى الله ومبشر بدينه الذي يدعو الناس إلى الهدى وإلى صراط مستقيم، وأنه كرسوله الذي آمن به ليس عليه إلا البلاغ.

وهذا أسامة بن زيد أمره الرسول ﷺ على جيش بين أفرادهِ وجنوده أبو بكر وعمر، وأسامة في ذلك الوقت لم يتجاوز العشرين من عمره أمره الرسول ﷺ على جيش يذهب إلى الروم ليمنعهم من الاعتداء على الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية. لكن الرسول ﷺ توفي قبل أن يتحرك الجيش إلى غايته، ولكنه كان قد ترك وصيته الحكيمة لأصحابه: «أنفذوا بعث أسامة أنفذوا بعث أسامة» (فتح الباري لابن حجر) وأصر الصديق على إنفاذ وصية الرسول ﷺ وتحرك جيش أسامة إلى غايته فلما علمت الروم بقيادة جيش أسامة انكمش الروم، ولم يعودوا يتخذون من حدود الشام نقط وتُوب على مهد الإسلام في الجزيرة العربية، وعاد الجيش بلا ضحايا وقال فيه المسلمون يومئذ: ما رأينا جيشاً أسلم من جيش أسامة.

إن الرسول ﷺ كان يحترم المواهب ويقدر الكفاءات لصالح الدعوة والمجتمع الإسلامي، ولو كانت المواهب غير إسلامية فهذا عبد الله بن أريقط اتخذه الرسول ﷺ دليلاً له في رحلته المحفوفة بالمكاره وهو على شركه.

ومن هنا استنبط العلماء جواز الاستعانة بغير المسلمين واتخاذهم مرشدين في الحرب إذا لم يعرف عنهم الغدر والخيانة، وأمن جانبهم، واشتهروا بالصدق والوفاء، فليس بمستعجن أن يتصف غير المسلمين ببعض الصفات الحسنة كالكرم والشجاعة والنجدة والوفاء والصدق، فالإسلام يحترم الكفاءات ويقدر المواهب ويأخذ برأيها، ولو كانت غير إسلامية ما دام ذلك للصالح العام.

* * *

احترام القضاء

القضاء أمر لازم لقيام الأمم، ولسعادتها وحياتها حياةً طيبة، ولنصرة المظلوم، وقمع الظالم، وقطع الخصومات وأداء الحقوق إلى مستحقيها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللضرب على أيدي العابثين وأهل الفساد، كي يسود النظام في المجتمع فيأمن كل فرد فيه على نفسه وماله، وعلى عرضه وحرية، ومن ثم يزيد الإنتاج، فتنهض البلدان، ويتحقق العمران، ويتفرغ لما يصلحهم دنيا ودينا، فإن الظلم من شيم النفوس، ولو أنصف الناس لاستراح قضاتهم.

إن القضاء من عمل الرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ورسول الإسلام محمد ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة والدائمة كما كان مأموراً بالدعوة والتبليغ كان مأموراً بالحكم والفصل في الخصومات، وقد ورد في القرآن الكريم في غير آية ما يشير إلى ذلك منها قوله تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن السنة أحاديث منها قول النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (رواه البخاري).

إن الإسلام يكفل للقاضي العزة والكرامة والهيبة، فهو يعطيه منزلة رفيعة لدى الحكام، ولدى رجال الدولة، لا يطمع فيها خاصة القوم وصفوتهم ليأمن بذلك الطعن به من حيث لا يدرى، وذلك لأن مكانته وخطورته تجعلان الآخرين غير مجترئين على النيل منه، ولقد بينت الشريعة الإسلامية أن القاضي مستقل في قضائه ليس لأحد عليه من سبيل، وكان قضاء النبي ﷺ المثل الأعلى لصيانة الحقوق، والتسوية بين

الخصوم والحرص على إقامة الحدود بين الناس، مهما كانت منزلتهم، قال ابن عبد السلام يصف قضاة الإسلام العادلين: (وربما كان بعضهم يحكم على من ولاه، ولا يقبله إن شهد عنده، إن نصوص الشريعة وقواعدها العامة تمنع ولاية الأمور في الدولة من التدخل في القضاء لتوجيهه لصالح أحد الخصوم، لأن في هذا ظلماً والظلم كله محرم، والنظام الإسلامى يتقيد بصفة عامة في كل أصوله وفروعه ومظاهره بمشروعية عليا هي العدل القائم على التوحيد، والتوحيد ليس بالقول فحسب، بل بالعمل الذى يصادقه، هذا العمل هو تنفيذ ما أمر الله به، ومنع ما نهى الله عنه، وذلك على وجه التضامن بين الناس، ومن مقتضى ذلك أن تكون أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه مصدراً للحق والعدل، فما أمر به هو الحق والعدل، من أجل ذلك أحاط الخلفاء الراشدون ورؤساء الدولة الإسلامية القضاء بكل مظاهر الإجلال والتكريم، وصانوه عن التدخل ضمناً للحق فلم يسعوا إلى تحويل الأحكام لصالحهم، أو لصالح من يحبون، وإنما كفّلوا لأحكام القضاء الاحترام والنفاز، فكانوا يقبلون الأحكام الصادرة ضدّهم راضين، وينفذونها طائعين، يروى أبو يوسف - وهو من أفاضل القضاة - عن نفسه أنه جاءه رجل يدعى أن له بستاناً في يد الخليفة فأحضر الخليفة إلى مجلس القضاء وطلب من المدعى البينة فقال: غصبه المهدي منى ولا بينة لدى وليحلف الخليفة فقال أمير المؤمنين: البستان لى اشتراه لى المهدي ولم أجد به عقداً، فوجه القاضى أبو يوسف إلى الخليفة اليمين ثلاث مرات، فما لم يحلف قضى بالبستان للرجل.

ومن ذلك أنه رد شهادة الوزير الفضل بن الربيع فسأله الرشيد أعظم ملوك الأرض فى عصره فى ذلك فقال: سمعته يقول: أنا عبد الخليفة فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد، وإن كان كاذباً فشهادته أيضاً مردودة لكذبه، وبالغ الخليفة فى الجدل، فقال وما شأنى كشاهد، أتقبل شهادتى؟ فقال أبو يوسف: لا فعجب الخليفة وسأله عن السبب فقال: لأنك تتكبر على الخلق، ولا تحضر الجماعة مع من حضرها من المسلمين، وهذا يناهى العدالة التى هى شرط لقبول الشهادة، فبنى الرشيد مسجداً فى داره وأذن للعامة فى الصلاة فيه فحضر بذلك صلاة الجماعة.

المراجع

كتب التفسير:

تفسير ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفدا. دار الفكر - بيروت: ١٤٠١هـ.

تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الشعب - القاهرة.

الصحاح:

صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. دار ابن كثير، اليمامة - بيروت: ١٤٠٨هـ - ١٩٧٠م.

صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري. المكتب الإسلامي - بيروت: ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

المستدرک علی الصحیحین: محمد بن عبد الله أو عبد الله الحاكم النيسابوري. دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

السنن:

سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي. دار الفكر.

سنن النسائي الكبرى: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي. دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني. دار الفكر - بيروت.

كتب الشروح:

التمهيد لابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى. وزارة
عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب: ١٣٨٧هـ.

شرح الزرقانى: محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقانى. دار الكتب العلمية -
بيروت: ١٤١١هـ.

فيض القدير: عبد الرؤوف المناوى. المكتبة التجارية الكبرى - مصر: ١٣٥٦هـ.

كتب التاريخ:

العبرى خبر من غبر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى. مطبعة
حكومة الكويت - الكويت: ١٩٨٤م.

المعاجم:

لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرىقى المصرى. دار صادر -
بيروت: ١٤١٥هـ.

مختار الصحاح: محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى: مكتبة لبنان -
بيروت: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.